حرية سليمان

قاسي

انسلَّ من غرفته في هدوء. مشى في الممر يتابع خطواته التي يلتهم أصواتها السجاد الفاخر. نزل إلى بهو الفندق وبقليل من التردد اتجه إلى الاستقبال، دفع حساب الغرفة لأسبوع جديد. أهمل نظرة دهشة وخبث في عين الموظف. آلمه شبح ابتسامة ارتسمت على وجهه، وأربكت تصميمه على الرحيل، هل يتراجع ويتشبث بها قدر استطاعته؟ إلا أنه أكمل استدارته وسيره تجاه البهو وألقى بجسده على المقعد الوثير. كان عقله مشوشا يفكر دون هدى فترك عينيه تتابع النقش الفارسي للسجاد تحت قدميه، كأن تلك الخطوط المتشابكة ستوصله ليقين ما. بعد قليل رفع رأسه فوجده يجلس أمامه. "قاسي" كما هو.

****

" أنت منا."

" منكم؟!"

****

ملامح "قاسي" إبليسية الجمال. تعرف عليه وهو في السنة النهائية لدراسته في الكلية. سليمان يكبره بعامين. تقابلا في رحلة إلى أسوان.

بادرته صديقته وقتها بتقديمه إليه:

"قاسي مع أخي في الدفعة"

ابتسم بارتباك بعد أن ردد وراءها دون أن يدرك:

"قاسي!"

ثم مد له يده ليصافحه وهو يقول:

" يا له من اسم."

" أنا أصلا من الصحراء. "

" أهلا بك"

" الكل يناديني بجاسي ولو الاسم صعب عليك ، نادني بجاسر."

" لا. على الإطلاق. قاسي. أهلا بك يا قاسي."

ممتد ممشوق القوام فارع الطول، بشعر فاحم لامع وعينين حادتين لا تقلان سوادا عن شعره. به عزة وأنفة تسع كل الصحاري. تحدثا قليلا ثم افترقا. تقابلا مرات معدودة بعد ذلك في مناسبات مختلفة مثل حفلتي تخرجهما، زفاف بعض معارفهما المشتركين، ولكن ما أن ينتهي اللقاء حتى يكون سليمان قد نسيه تماما.

بعد أربع سنوات من التخرج رآه بالصدفة خارج النقابة، قابله سليمان بترحيب بيّن ربما انعكاسا لجمال صباح ذلك اليوم وشمسه المبهجة:

" قاسي! كيف حالك؟"

" بخير . وأنت ؟ ماذا تفعل الآن؟"

وكالعادة أيضا لقاء عابر سريع. لكن بعد بضعة أيام، رن جرس الباب عصرا، وعندما فتح وجد قاسي يقف أمامه بطوله الفارع مبتسما. اندهش سليمان لهذه الزيارة غير المتوقعة. رحب به بسرور صادق وبمرح منعكس من ابتسامة ضيفه. جلسا يرتشفان الشاي معا في البلكونة الصغيرة التي تطل على حديقة صغيرة مهملة أمام منزل سليمان.

يومها كان قاسي رائعا بكل بساطة. يتكلم بتلقائية وخفة وانفتاح. تحفظ سليمان قليلا في أول الأمر ثم ما لبث أن انساق لبساطة الحديث. تكلما كثيرا وكأنها صداقة مفتقدة. بعد فترة دخلا لتفقد الكتب والأسطوانات. تفرع الحديث عن الموسيقى والأوبرا اللتين يهواها سليمان، ثم تكلما عن الكتاب الذى يقرأه الآن. سأله قاسي:

- هل قرأت رواية (غرفة عبدالله) ؟

لم يكن سليمان قد سمع بها من قبل. تكلم قاسي عنها بحماس. استمعا معا لعدة آريات من أوبرات مختلفة. مر الوقت سريعا، ثم استأذن قاسي معتذرا عن طول زيارته. وبعد رحيله ظل سليمان يفكر فيما كان يقوله قاسي خاصة، حديثه عن الصحراء وأساطيره المبهمة المغرية التي يعرفها عن أجداده.

من تلك الليلة، صار قاسي صديقا له بطريقته الخاصة. فهو إما مختف لا يعرف أحد مكانا له، أو متواجد دافئ القرب. اعتاد سليمان على هذا الشكل من الصداقة، بل كان هذا الشكل هو الأكثر ارتياحا له أيضا، لكونه منعزل إلى حد ما ولا يتدخل في شئون الآخرين ، مما يدعو بعض الناس باتهامه بالأنانية أو التمركز حول ذاته. إلا أن العلاقة بينهما ما برحت على مر الأيام تشتد وتتوتر كأنها محكومة بأصبع خفي مجهول. توتر بدأ يؤثر على سليمان ويؤرق كيانه بشكل مبهم. لكن حبه لفريدة وانشغاله بها كان يخفف من هذا التوتر يكاد يلغيه. وكثيرا ما تنزه الثلاثة معا، فيسعد سليمان بين حبيبته وصديقه. لكن في حفل خطوبة سليمان وفريدة وصل قاسي متأخرا بلا سبب مقنع، ولما دخل القاعة كانت فريدة في حضن سليمان وهو يراقصها. تهلل وجه سليمان برؤية صديقه ونظرة عتاب تطل من عينيه على وصوله متأخرا. سلم قاسي عليها وتمنى لهما السعادة الدائمة، ثم مال عليه بعد تردد قصير وهمس في أذنه:

" أنت منا."

خيل لسليمان أنه لم يسمع ما قاله لعلو صوت الموسيقى ومتابعة الرقص. فهز رأسه قليلا مستفهما دون أن يدع فريدة من حضه. فلم يتحرك قاسي ولا أعاد عليه ما قاله. فرجعت الكلمات مرة أخرى لرأس سليمان المشوش بالموسيقى والفرحة والرقص.

" أنت منا."

" منكم؟"

رد عليه دون أن يفهم تماما أو يعي ما يقول وهم أن يستدير كي يواجهه مرة أخرى إلا أن فريدة اقتربت منه وهمست قائلة:

" كم أحبك!"

فلم يتمالك نفسه فقبلها بحنان أذهله عن كل ما حوله. وتتابعت أفراح ليلة منهكة لذيذة حتى الفجر.

العلامة

ونسى كل شيء. وفي يوم كان يتصفح ألبوم الصور مع فريدة يسترجعان فيها ذكريات الحفل، خلقت الكلمات مرة أخرى وترددت في عقله. كانت الصورة التي التقطها المصور وهو يقبل فريدة وفيها يبدو جانب من ظهر قاسي وهو منحني يهمس له. كان كل ما يظهر من وجهه هو طرف حاجبه الأسود المدبب، ربما كانت حدة هذا الحاجب هي ما أعادت له وقع تلك الكلمات عليه. استأذن من خطيبته وانطلق إلى منزل قاسي.
وما أن فتح له قاسي باب الشقة حتى بادره قبل أن يحييه بالسلام:

" ما معنى ما قلته في حفل الخطوبة؟"

استدار قاسي ودعاه للدخول. سار سليمان خلفه وهو يتابع النقوش الموجودة على ظهر روبه الحريري.

" تفضل."

وأضاف متغافلا وهو يدعوه للجلوس:

"حفل الخطوبة ؟ منذ ستة أشهر!"

ثم جلس على مقعد عالي الظهر بجوار المرآة الكبيرة المذهبة. هب سليمان واقفا وأشار إلى الصورة وهو يميل عليه:

" ماذا كنت تعني؟"

ابتسم قاسي وبدت الابتسامة لسليمان ككيان شرير شرس منفصل عنهما معا. رفع قاسي يده ومدها إلى سليمان وهو يقول:

" اعطني كفك."

تسمر سليمان مكانه وفي داخله خوف يتصاعد، خوف لم يشعر به من قبل لكنه يعرف أنه موجود قابع في مكان ما في روحه.

هز قاسي يده الممدودة بسخرية ثم كرر:

" هيا. أرني كفك."

مد يده ببطء في اتجاه قاسي، فامسكها هذا وبسطها وأشار بإصبعه مبينا العلامة.

سحب يده وقربها من وجهه كأنه يتأملها. ارتعشت يده قليلا. كيف لم يلاحظها من قبل.

"اجلس."

بدأ قاسي في الكلام، حاول سليمان أن يركز معه، ظل قاسي يتكلم، لم يفقه هو أي من الكلام الذي قيل. كلمه عن نور ونار، عن عوالم تتداخل لإنس وجن. كان عقله يرفض كل ما يسمعه بل ويسفهه.

جن! أي جنون.

توقف قاسي عن الكلام فجأة ثم صمت يتأمل ما يعتري صديقه ثم قال:

" لا عليك. أصدقت ما كنت أحكيه لك. كم أنت غر. يا أخي . أنا كنت أمزح. "

رفع سليمان رأسه ونظر إليه فتلاقت عيونهما فأكد خوفهما اليقين. خرج صوت سليمان محشرجا:

" من أنت يا قاسي؟"

قام قاسي واقترب منه ولف ساعده حول كتفه وهو يقول :

" ما أنا إلا رسول."

النبوءة

انقبض قلبه، ودارت أمام عينيه عوالم خفية مبهمة.

"رسول؟ لمن؟"

يعرف قاسي كيف يضغط وكيف يؤسس مملكته. ركن ظهره على الكرسي وألقى برأسه للوراء فبانت حدة تقاسيم وجهه. مال برأسه قليلا وقال وكأنه يتحداه في لعبة ثنائية بالكاد تبدأ:

" لو كنتَ تصدق فعلا. اترك نفسك لنفسك. تخل عن أي شيء يربك إحساسك... فتصل، ستتيقن دون وسيط."

" كلامك مبهم. يربكني أكثر ولا ينير لي أي طريق. يطرح عني أي سبيل للتعقل."

" عليك فقط إلا تدع نفسك للزيف. كن قويا ولا تخف."

انكمش حول نفسه وربع ساعديه حول صدره وانثنى على نفسه وظل يهز جذعه صعودا وهبوطا حتى شعر بتقلص عضلات بطنه بشده، فتوقف. ثم رفع رأسه وواجه قاسي بعين بها توسل:

" لتكن دليلي."

اعتدل قاسي واستوى على مقعده وشد ظهره ورد عليه بهدوء:

" ليس الآن . لم يحن الموعد بعد."

ثم أضاف بثقة ضايقت سليمان ووترته قليلا رغم أنه هو من طلب. أضاف قاسي بعد برهة:

" سأكونه عندما تتوسط الشمس السماء. "

قطب سليمان غير فاهم ما يقال:

" أرجوك. ارشدني ولو بكلمة واحدة تطمئن قلبي وتبين لي الطريق."

أشعل قاسي سيجارة جديدة ورفع رأسه ونظر إلى البعيد كأنه يرى شيئا أبعد من مجال الرؤية، ثم أخذ شهيقا بطيئا. مرت لحظات طويلة كالدهر على سليمان وهو ينتظر:

" مارج."

قالها قاسي ولم يزد.

لم يلح عليه سليمان. كانت الكلمة لا تعني له أي شيء إلا أنها كانت ترجع له ترديدا بعيدا كذكريات مبهمة سحيقة القدم ولا تستطيع ذاكرته أن تقبض عليها. ورغم هذا شحنت هذه الكلمة روحه المتسائلة بل وأتخمتها.

قام واتجه نحو الباب وفتحته ثم استدار وألقى نظرة أخيرة علي قاسي الذي ظل في مكانه. أقفل الباب بهدوء ونزل الدورين على السلالم. بقى قليلا في مدخل العمارة كأنه لا يجرؤ على الولوج إلى الشارع. ظل واقفا ينظر إلى يده ويدور في حلزون العلامة. شل تفكيره لفترة حتى دخلت امرأة عجوز تحمل كيسا ممتلئا في كل يد. وقفت للحظة تلتقط أنفاسها ثم لاحظت وجوده في الظلام بعدما اعتادت عيناها عليه، ارتبكت للحظة ثم شعر أنه أخافها بشكل ما. فتقدم للانصراف فتراجعت للخلف ببطء فمر بجوارها وهو يغمغم بالسلام المرتبك. قابله ضياء الشارع كمصارع يعرف كيف يتحكم في خصمه. حار إلى أين يتجه لكنه ما أن ركب سيارته حتى دار بها دورات لا تنتهي إلى أن أخذته العادة إلى بيت فريدة مرة أخرى. وما أن وقف أمام منزلها حتى شعر بانهيار تام. قابلته فريدة بهلع:

" مالك تبدو شاحبا هكذا؟ "

أرتعش عندما أمسكت بيده وقال لها وهو يلهث:

" أشعر بالبرودة."

أحاطته بساعدها وساعدته على الدخول، ازدادت رعشته عندما استقر بجوارها على الكنبة. التصق بها ودفس رأسه في جنبها وقال:

"غطيني."

قامت لتحضر غطاء ورجعت وجدته ممددا على الكنبة. جلست بجواره على الأرض بعد أن فرشت الغطاء عليه. وبدأت تمسح العرق البارد عن وجهه. ثم أخذت يده في يدها. وكانت عيناها تسأله بحنان ورقة عما أصابه. هدأ قليلا ثم قال لها وهو يحاول الابتسام:

" آسف. لا أعرف ما الذي اعتراني. يبدو أني في بداية نزلة برد حادة . "

عز عليه أن يكذب عليها، لكنه لا يعرف ولا يفهم.

ربتت على يده ثم ابتسمت بوهن وقالت:

" هون عليك. استرح ونم قليلا وعندما تستيقظ ستجدني قد أعددت لك عشاء فاخرا."

تمدد أكثر على الأريكة وترك جسده للاسترخاء شاعرا بالامتنان لها، ورويدا رويدا غفا.

استيقظ أفضل حالا واستعاد طمأنينته وهدوءه. غسل وجهه وانتعش. دخل المطبخ في محاولة لمساعدتها إلا أنها طردته ضاحكة:

" أخرج فورا. أتريد أن تأكل أكلا لذيذا أم " بزرميط "؟ "

احتضنها ودفن أنفه في شعرها. فقالت :

" كل ما سوف تشمه فيّ الآن هو البصل. هيا إلى الخارج. دعني أحضر لك شيئا يجننك."

رد ضاحكا:

" أكثر؟!"

" إذن دعني أحضر لك شيئا يعقلك."

استدار متجها خارج المطبخ وتركها قائلا بنبرة تتصنع التحدي:

" إن استطعت يا روح قلبي."

دار في الصالة قليلا ثم وضع أسطوانة موسيقى. جلس على الأريكة وتناول مجلة ظل يتصفحها دون أن يركز بها تماما. تناهى إلى سمعه صوت فريدة تدندن مع المغنية. أسعده ذلك وحاول متابعة اللحن معهما. ظل يقلب صفحات المجلة حتى شد بصره مقال مصور عن النسق الجمالي في فن الأرابيسك.

بعد برهة سمعها تناديه:

قام فوجدها قد هيأت مائدة بشموع وزهور.

" ما كل هذا الجمال؟!"

"المهم الطعم."

" أنا أتكلم عنك أنت يا حبيبتي."

فضجت ضاحكة.

" المهم الطعم. أيضا."

هم أن يقترب ليقبلها، فحذرته بهمهمات سريعة. تراجع وجلس على المقعد المخصص له.

" مولاي."

" تدللينني كثيرا."

" بعض الأوقات فقط. هيا هيا نأكل قبل أن يبرد الطعام."

جلسا متقابلين. يفصل بينهما الشموع والزهور.

"ذق وقل لي."

" حتى قبل أن أتذوق."

" يا نصاب!"

غرز الشوكة في قطعة بروكلي ورفعها إلى فمه وهو يفكر أن كل شيء يبدو كاملا للغاية بل ربما أكثر من المرجو والمطلوب. كان لهب الشمعة أمامه يتلاعب بإغواء. شرد في صور المجلة.

" ما لك ؟ ألن تقول لي ما بك؟"

لم يعرف كيف يرد على سؤالها. كم تخيل أنه أخبرها بما قاله قاسي، وأسر إليها بأشيائه المبهمة، لكنه لا يعرف ماذا يقول الآن، كأن نقاشاته الخيالية معها قد أوصلت ما بداخله لها. كأن عليها هي أن تعرف دون أن يبوح.

" أراك تحدق في النار كثيرا **!"**

رفع عينيه عن اللهب بصعوبة وكأن النار قد أوثقته برباط أبدي. كان ينظر إليها ولكن روحه كانت تتراقص في لهب الشمعة. قال لها:

" فقط أفكر في مقال قرأته منذ قليل في مجلة عندك."

لكنه كان متيقنا أن هذه هي النبوءة..... مارج.

معراج اليقين

تتابعت الأيام وخف توتر سليمان قليلا قليلا ولم يحدث أي شيء يغير مجرى حياته. فصباحا في عمله يتابعه بانتظام وإخلاص. هو محبوب من كل من يعمل معه بالبنك، كما أنه من الموظفين المفضلين لدي العملاء، فهو طويل البال، يساعد بكل إمكانياته ويسهل الأمور حتى لو تحمل تبعية الإخلال بالروتين. في هذه الوقت انغمس قدر استطاعته في رتابة الأيام بين العمل في البنك ومتابعة تجهيز بيت الزوجية مع فريدة. وعندما يرجع متعبا من مجهود يومه الطويل، يجلس أمام أي قناة تليفزيونية لا يركز فيما يعرض إلا إذا كان من أفلام الأبيض والأسود القديمة يتابعها حتى يجد نفسه قد نعس فيقوم متثاقلا يرمي نفسه على فراشه ويغيب في نوم متقطع حتى يستيقظ صباحا ليبدأ يومه من جديد.

لكنه في نهار يوم جمعة بتراب خماسيني، يساق باندفاع مفاجئ إلى بيت قاسي، كأن روحه التي كان انتظارها على رماد خادع قد مست بجذوة لهب مفاجئة. في طريقه يقلقه ألا يجد قاسي في بيته، أن تكون هذه إحدى اختفاءاته العديدة، لكنه يجده يقف في شرفة منزله يدخن سيجارته مرتديا روبا حريريا يزيد من أناقته ويشبهه بأحد الساموراي. يشير إليه قاسي مرحبا من الشرفة، يرد سليمان بابتسامة يتنازعها خوف وسعادة فتشوه ملامح وجهه للحظات. يقرر أن يصعد الدورين على السلالم. يفكر فيما سيقوله إلا أنه لا يصل لشكل معين لجملة أو سؤال. يجد قاسي قد فتح له باب المنزل. يتصافحان بحميمية ثم يقول سليمان:

" الجو سيء بهذه الأتربة الخماسينية."

يتغير حال قاسي وهو يقول:

" طبيعي أن تقول هذا فأنت لا تعرف الصحراء. أنا أعرف أنك لم تذهب إلى الصحراء من قبل، أليس كذلك؟"

هز سليمان رأسه موافقا. فأكمل قاسي كلامه :

" ألا ترى أن بلدنا عبارة عن صحراء شاسعة ومن النادر أن تزار."

" لا تنسى أننا لا نعيش إلا قرب الماء، بحر أو نهر."

تهكم قاسي وأعاد:

"أننا ؟ ماذا تريد أن تشرب؟"

" ألديك أي مشروب بارد."

" ثوان."

جلسا يرتشفان العصير في عتمة الصالون الذي يدخله قليل من الضوء. أمسك قاسي بمشغل التلفزيون وقال وهو يضغط على زر التشغيل:

" اليوم مباراة مهمة جدا. أعرف أنك لا تهتم كثيرا بكرة القدم لكن لتبق معي كي نشاهدها معا. سأطلب غذاء من محل جوارنا طعامه ممتاز. ابق من فضلك."

ثم مد يده يبحث عن شيء بجواره وأخرج قائمة طعام وناولها لسليمان.

" ها. انتقِ ما تريد. هيا."

رحب سليمان بالفكرة بعد تردد بسيط. طلبا الطعام وبعد فترة دردشة سريعة كانا يجلسان على الأريكة المريحة يشاهدان المباراة ويتناولان طعامهما. انفعلا مع ركلات طائشة، سعدا بأهداف مخطط لها. تذوق كل منهما طعام الآخر. وفي نهاية المباراة بقيا مسترخيين على الأريكة يتابعان تحليلا للمباراة. قال سليمان وهو يتمطى:

" طاوعتك في مشاهدة المباراة" ثم هز رأسه وأكمل" أما أن أشاهد تعليقا وساذجا فهذا لا استطيع احتماله."

فابتسم قاسي له:

" عندك حق."

ضغط على زر الإغلاق فهدأت الغرفة فورا بعد صخب المباراة وتهييج المذيع ونبرة صوته العالية المنفرة. مال قاسي برأسه المسنودة على الأريكة ناحية سليمان فأصبح وجهه قريبا منه وقال:

" أشكرك لمتابعة المباراة معي."

" أنا الذي أشكرك على الاستضافة. وعلى الغذاء. وعلى فكرة عندك حق هذا المحل طعامه لذيذ فعلا."

" ألم أقل لك."

رجع كل منهما ينظر أمامه إلى شاشة التليفزيون المغلق فرأيا انعكاس صورتهما عليها. تمهل سليمان قليلا ثم سأل:

" أما من جديد؟"

أجابه قاسي ببرود وهو يقوم عن الأريكة فيختفي من الصورة المعكوسة علي الشاشة:

" ما زلتَ تشك."

لم يعلق سليمان. اختفى قاسي داخل الممر المؤدي للمطبخ.

قام سليمان ببطء يشد طوله ثم رفع صوته قائلا:

" أنا ماشي."

وسمع صوت قاسي يأتي من بعيد يتردد وكأن معه صدي:

" سلام."

أغلق الباب بهدوء. نزل علي السلالم ببطء يترنح وكأنه يرقص ويحجل في نفس الوقت. يتأرجح شعوره بين يأس وسعادة غير قادر على الارتكاز على أي منهما.

يرجع لفريدة وتتابع الأيام يَهْنِئَان فيها بالاستعداد للزفاف، يهتمان بالتفاصيل الصغيرة ويستمتعان باختلاس لحظات نشوة مسترقة بين الناس. الأحضان السريعة الفوارة في زوايا محلات العفش، القبلات الخاطفة في إشارة مرور طويلة بين شذرات المتلصصين. وفي مرة بينما يرتشفان رحيق قبلتهما المختلسة فوجئا بدقات متتالية سريعة على زجاج السيارة من فتى شحاذ فترتبك فريدة وتبتعد سريعا عنه وتمسك بزر الكاسيت وتزيد ارتفاع الصوت وكأنها تغطي بعلوه إحراجها، فتصدح أصوات الأوبرا الموضوعة دائما في سيارته فجأة، فيشوح لهما فتى الشارع بيده. وبعد أن يتغير اللون إلى الأخضر وتبدأ السيارات في المرور تقول له:

" أنقذتنا أوبراك. لأول مرة أحب الأوبرا."

ضحك سليمان. وقال لها:

" أرأيت كم هي مفيدة هذه الأصوات التي تصرخ على رأيك. اعطي لنفسك فرصة فقط للاستمتاع بها. لو تدرين كم هي جميلة."

" إذن سأحاول. ما الذي نستمع له الآن."

شعر سليمان بالمرح وهو يعاملها كتلميذة صغيرة يشرح لها ما خفي عنها في الدرس.

" سأقص عليك يا ستي قصة هذه الأوبرا. توراندوت الأميرة القاسية باردة المشاعر تطرح ثلاثة ألغاز على خطابها وكل من يفشل في حلها يتم قطع رقبته إلى أن يأتي الأمير المجهول خلف ابن الملك تيمور فينجح في حل ألغازها الثلاثة بل ويتحداها أن تكتشف اسمه قبل الصباح، فإن فعلت سيخسر حياته، فتقوم توراندوت بتعذيب الفتاة العبدة ليو المرافقة المخلصة للأمير في محاولة أن تعرف وتكتشف اسمه ولكن ليو كان أهون عليها أن تموت من أن تكشف اسمه وفعلا تنتحر لأنها تحب الأمير حبا حقيقيا. أه استمعي الآن لهذه الأريا إنه "الأمير خلف" بعد أن طلب من الأميرة معرفة اسمه كي يكسر صلفها وكبرياءها (نوسون دورما) أي (لا أحد ينام) الآن الفجر قرب ولاتزال الأميرة تجهل اسمه، وهو متأكد أنه على مطلع الفجر سينتصر."

صدح صوته مع التينور محاولا أن يقلد نبراته وقوته إلا أنه يفشل فيهز رأسه كأنه يقدر جمال الصوت واللحن.

تقول فريدة :

" أه أعرف هذه الأريا. أسمعها عندك دائما."

هز رأسه وأكمل مع التينور الغناء.

" all alba vincero' "

نظرت له فريدة بفضول وقالت:

" وهل عرفت الأميرة من هو؟"

كانا قد وصلا إلى منزلها فأوقف السيارة والتفت بكل جذعه تجاهها ونظر إليها سعيدا من أثر الغناء والحكاية.

" هذا هو لغزي أنا لك."

" لا صحيح. هل عرفت اسمه؟"

" طيب. أنا اسمي...؟"

" يا غلس. بجد، هل عرفت اسمه مع طلوع النهار؟"

هز رأسه وقال:

" لا أعرف. الحقيقة أن بوتشيني الملحن قد مات قبل أن يكمل النهاية. وقد كان مغرما بالنهايات الحزينة المأساوية ولذلك لا أعرف ماذا كان ينوي لهذه الأوبرا."

" أتعرض بلا نهاية؟"

" لا لقد أكملها أحد تلاميذه واستلهم روحه في النهاية."

" إذن كيف انتهت؟"

أخرج سليمان الأسطوانة من المسجل ووضعها في غلافها وقدمها إليها وقال:

" فرصة أنك تستمعين إليها وتحاولين أن تعرفي بنفسك."

اختطفتها منه بغيظ وهمت بأن تترجل فأمسكت بباب السيارة لتفتحه ثم رجعت والتفتت إليه واقتنصت قبلة سريعة ونزلت وهي تقول:

" غِلس."

ابتسم وظل يراقبها ويتأمل طريقة سيرها النطاطة التي كثيرا ما قلدها كي يثير ضحكها وسخريتها. قبل أن تدخل استدارت وأشارت له ومثلت أنها ستلقي بالأسطوانة في صندوق القمامة ثم ضحكت واختفت سريعا في مدخل البيت.

رجع سريعا إلى بيته كي يتقي الحر البادئ في الانفلات. وقف تحت الدش لفترة طويلة واستعاد كل اللحظات الممتعة معها وبدأ صوته دون أن يتحكم فيه بالغناء وترديد أريا الأوبرا وصار يعلي صوته قدر استطاعته حتى ضحك وقال لنفسه أن الجيران سيقولون لقد جن سليمان تماما. خرج من الدش وبدأ في تجفيف جسده سريعا. وما أن خرج من الحمام لفحه تيار هواء ساخن حتى كاد أن يعيده إلى الحمام. اتجه إلى غرفته وارتدى منامته كي يستريح قليلا إلا أن سخونة الهواء الآتي من النافذة جعلته يتجه إليها ويوارب الشيش لحماية الغرفة من هذا اللهيب. وما أن اقترب من النافذة حتى سحره منظر المدينة المشتعلة المتلاعبة في وهج شمس الأصيل. وفي لحظة كالحلم غشيه "مارج"

(أنا أبوك. المجد لي ولأتباعي. مسست أمك في ليلة الوعد. قذفتها بغلواء اشتعالي. أضرمت فيها لهيب روحي فكنتَ أنتَ دفء الأجيج... آن للنار داخلك أن تحكم. فإن أخمدتها ضاعت وضعت معها إلى الأبد في مهالك الفانين. وإن ألهبتها باتباعك لي، أججتها حتى السعير وتواصلت مع السرمد. لك إن استطعت مجد الألم وروعة عذاب الخلود.)

تراجع الوهج عن عينيه وأفاق مذهولا منهكا منتهكا بالشك والريبة. انهار متمتما

بكلمات مبهمة على السرير غير قادر على الحركة تغمره أشعة الشمس وتلسع جسده

العاري حتى دخل في شبه غيبوبة إلى أن رن جرس الهاتف جواره، حاول قدر استطاعته أن يركز في رقم الهاتف فوجد أنها فريدة. ظل الهاتف يرن مرة بعد مرة وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه. ثم رفع السماعة بعد فترة شعر أنها قرن ويزيد. أتاه صوتها كهدهدة أم فجمع أشتاته وقال:

" فريدة. "
" ما بك؟ صوتك متعب. كنت بخير وأنت معي."
" فريدة. أنا أهلوس! أدركيني!"
" اهدأ. القيظ فوق الاحتمال. لا تدعه يغلبك. هيا قم . أطفئه تحت الماء البارد المنعش. "

" أنا خارج من الدش الآن."

" ضع نفسك تحت الماء البارد حتى ولو كنت خارج منه للتو."

صمت لبرهة يركب كلماتها بعقله ويستجمع قواه.

" قم. خذ الدش وسأنتظرك. "

"....."

" لا تقلقني عليك. أرجوك يا حبيبي. هيا يا سليمان."

" حاضر."

وضع السماعة وجلس مستقيما على السرير. كانت الشمس قد انسحبت وبدأت في الغروب. دخل مرة أخرى إلى الماء البارد فأنعشه فعلا وخرج سريعا ووجد أن الحر قد انكسر تماما وبدأ في استعادة سيطرته على جسده وروحه. أرتدى ملابسه وطوال الطريق كان يفكر فيما سوف يقوله لها. وقبل أن يصعد إليها أخرج محموله وحاول أن يتصل بقاسي إلا أنه لم يرد. تردد قليلا وحاول أن يتصل به مرة ثانية ثم غير رأيه واتخذ المصعد إلى فريدة. وجدها تقف على الباب منتظرة إياه.

" لمحتك في النافذة . لم تأخرت في الصعود؟"

لم يتحرك ووقف أمامها يشعر بقلبه المنقبض كحجر قبل تفتته بمعول قاسي. فردَت ذراعيها تدعوه إليها. تقدمت إليه واحتضنته وأدخلته إلى البيت وهي مازالت تحتضنه. وقفا طويلا وراء الباب حتى قال لها:

" أفتقد أمي كثيرا."

فربتت عليه برقة :

" أنت ولدي الحبيب. أنا لا أحد لي في هذه المدينة سواك. فأنت لي كل شيء"

ثم ابتعدت عنه قليلا وأمسكته كالطفل وشدته وراءها حتى وصلا إلى غرفة الجلوس وجلسا متجاورين على الكنبة. فدس رأسه في صدرها أكثر واستراح مع تناغم دقات قلبها. ظلا لفترة طويلة على نفس الحال ثم قطع الصمت وقال:

" تنتابني هلاوس ولا أستطيع الفكاك منها."

تخللت شعره بيدها ثم أجابته

" أنت متوتر فقط لاقتراب موعد زفافنا."

رفع رأسه لينظر إليها فشعرت أنه قد هدأ، فأضافت وهي تقوم كي تزيل التوتر:

" أم أنك تريد الهروب. لا مفر يا حبيبي مهما فعلت."

في داخله كانت ابتسامة الطمأنينة تتصاعد حتى ملأت روحه وانعكست على وجهه، وبقي ينظر إليها مأخوذا بجمالها وشفيف روحها.

السحر

ربما لا يعادل قسوة السحر إلا انبلاج الفجر. فكم هو مؤلم هذا اللون الذي تذعن له السماء، هذه الزرقة الداكنة التي ترغمك على الرنو علك تستشف الحدود. أن ترى هذا الأسود الرائق وهو يتخلخل ببطء إلى لون يصعب الإحاطة به. لون يفرض نفسه بجبروت لأنه ببساطة يطبق قانونا أزليا غير عابئ بأي سواه.

كانت الزقزقات الحادة تطفو بتمهل من مكان سحيق في كيان سليمان، جارحة هدوءه ومتجاوبة مع اللون السحري. ورغم انتباهه للتحول اللوني إلا أنه فشل في تحديد أول زقزقة تناهت إلى سمعه. فالتدهور الموجع لسواد السماء ألهاه عن التقاط أول صوت للطيور. تتابعت في خياله مشاهد فقرة من برنامج تسجيلي شاهده عن عادات الطيور وطريقة تعامل الأفراد بالذات مع نفس جنسها، خاصة الحمام الذي دهش أنه يتصف برقة زائفة وقسوة مستترة عنيفة.

حركة خفيفة خلفه. استدار سليمان ثم استند على حافة النافذة. كانت قد غيرت قليلا من وضع ساعدها، فانزاح الغطاء الحريري بشكل شبه كلي كاشفا عن جسدها الفاتن في عريه كأنه سر يتجلى. كم مرة تأملها وفي كل مرة يؤخذ بسحر تلك الشواطئ الساحرة الثنيات لجسدها المستلقي بسلام. تخلب لبه الحركة الناعمة الرتيبة للتباعد الضئيل لحلمتي ثدييها بتنفسها الهادئ وتزيد من فتنة استرخائها. شعر أنها كالبلور يشع ويمتص في نفس الوقت ألقا خاصا خفيا. تقدم بهدوء نحوها. التقط وردة من الزهرية. ثم نظر مرة أخرى إلى النافذة والضوء الضئيل المتغير الذي يبدل كل شيء. فكر أنه عليه أن يتدارك نفسه قبل أن يلحقه الضياء. للحظة فكر أن يعيد الوردة لمكانها بالزهرية، لكن أصابعه بدأت في كسر أشواك الوردة واحدة بواحدة. تململت زوجته في نومها لكن تنفسها ظل في نفس هدوءه وانتظامه. تأكد من انتزاع كل الأشواك فمر بأصبعه على ساق الوردة لكن شوكة أخيرة مختبئة تحت الوريقات انغرست في يده فأدمتها. كز من الألم المفاجئ وشاهد خط الدم الذي سال على الوريقة مقاربا من لونها. مص أصبعه حتى أوقف النزيف ومسح دمه من الوريقة. جلس بهدوء بجوار زوجته ومسد شعرها برقة واقترب من وجهها حتى شعر بأنفاسها على وجنته لكنه لم يجرؤ على تقبيلها. وبدون أن تلمس الوردة جسدها أمسكها في الهواء فكانت الوردة بين ثدييها لبرهة ثم قلب الوردة ووضع الوردة مقلوبة فغطت الوريقات الحمراء هلالها وتنامى فرع الوردة المنحنى الذي يماثل ويوازي انحناءات جسدها حتى وصل إلى سرتها، فصارت صورة الوردة على جسدها في تناغم أعجبه.

حثه النور، فقام بهدوء وأمسك بورقة وكتب عليها:

" آسف."

ووضعها بجانبها بجوار الوردة. واتجه نحو الباب دون أن يلتفت مرة أخرى إليها ويردد داخله:

"أرحل لأواجه كل هذا الفجر القاسي."

ها هو الآن في بهو فندق فاخر يجلس أمام شيطانه، وبابتسامة أخرى لها حس التواطؤ الممتع سيتركها ويرحل معه الذي وعده بالوصول إلى ما قدر.

مارج

يقف قاسي أمامه في بهو الفندق. فكر سليمان أن قاسي عندما يكون وحيدا معه يكون في أفضل أحواله. ها هو يقترب منه وسواد شعره يلمع مع انعكاسات الأضواء المبهرة لثريات الفندق الضخمة.

نظر قاسي له للحظة دون كلام ثم قال:

" تركتها في الغرفة؟"

شع قلب سليمان بغضب كاره لقاسي بشكل فجائي، مباغت حتى لنفسه. قال لنفسه لا يحق له أن يسأل عنها. كم حاول أن ينسى اللحظة التي قهره فيها قاسي بإجلاء العلامة. ولكن من الذي يستطيع أن يتجاهل مارج العجيب وتجليه. كل طريق فخ شائك وفوهة تفغر فاهً. تململ قاسي وكأنه يستعد للرحيل. ها هي حبة قلبه تغفو لا تدري عن هجرانه شيئا. كان يفكر كم هو لعين إذ أوصلها لهذه اللحظة. كيف وآتته الشجاعة والجرأة بل والدناءة على تركها؟ ولكن أليس للحقيقة سحر لا يقاوم؟ والخطوة الأولى فيها بحور من ألم وشواطئ متروكة في يأس يفطر القلب ويصدع الحشا؟ ودون أن يشعر خرجت آهه حارة ألهبت صدره. نظر له سليمان وقد ضاقت عيناه حتى لم يظهر فيهما إلا بؤبؤهما الفاحم السواد. تساءل سليمان هل هي نظرة توعد أم أن قاسي يحاول أن يقرأ ما يعتمل داخله.

كرر قاسي سؤاله:

" هل تركتها في الغرفة ؟"

وما الذي يهمك؟ لكنه أومأ برأسه وأجاب:

" نعم."

" هل تركت لها أي رسالة ؟"

كم يليق بك أن تكون من المباحث. كظم سليمان غيظه ودمدم:

" لا."

نعم تركت لها رسالة، تركت لها قلب أخرق و أسى . تركت لها أحاديث لا تنقطع عن الحقيقة والجنون.

قبض قاسي على ساعده وأحكم قبضته عليه وقال:

" كنت أعرف أنك لن تخدع نفسك أبدا."

انتاب سليمان ضحك داخلي مفاجئ غير أنه ظل يرنو لقاسي دون أن تتغير ملامحه وفكر إنه يقلد ممثلا مشهورا.

تردد سليمان ثم باغت قاسي:

" هل أنت متأكد مما نحن مقدمان عليه؟"

" لا معنى لكلامك هذا الآن. أنا أنفذ ما نصحت به . وما وعدت إلا الحقيقة . وأنت طلبت أن أكون دليلك في رحلتنا. فإن كنت تشك. .."

صمت قليلا ثم انقبضت زوايا فمه وزم شفتيه الرفيعتين، وأكمل:

" إذن من الأفضل لك أن تصعد لعروسك وتنسى كل شيء."

" لا. أنا معك وأنت صديقي ودليلي . قد وضعت كل شيء في كفة واحدة . هيا بنا."

توقفا للحظة متواجهين. ربت قاسي على كتف سليمان ثم دفعه برفق وأكد:

" هيا بنا."

سارا جنبا إلى جنب تغير من أشكالهما الأضواء وتبدل من حدود كتلتهما حتى ولجا إلى نور الصباح فاختفيا وتلاشيا في الضياء.

الصحراء

"ما وعدت إلا الحقيقة ." يكرر كلمات قاسي له. أجازه من البنك والأوبرا وعروسه.

" نحن غرباء عن هؤلاء القوم."

يجمعني قاسي معه. يقول له (عالمنا) (قومنا). أهل من أنس وطين وأهل من جن ونار. أي جنون أن يصدقه. يعتصر سليمان الألم: أصلي نار. فيؤكد لنفسه بعنف ونزق: وحتى ولو كانت جهنم نفسها هي الأصل. الجنة حلم واهم لسذج البشر. طوبى لنا ..نحن كائنات النار.

يلتهم الكتب التي تتحدث عن النار وكائناتها. يترك نهاية دون جوفاني تدور وتدور على مشغل الأسطوانات. يتلاعب مع التصديق والخديعة. ولكن الرحلة لابد لها في نهاية الأمر أن تبدأ.

وها هي تعلن عن نفسها بشوق عارم . شوق يقوض كل ماضيه ويدكه دكا. شوق يقصيه عن فريدته.

ولكن نعم يا قاسي. هيا بنا ننئي لنصل. قد حان الوقت وأزف.

خرجا من الفندق. جلسا في سيارة سليمان. قام سليمان بتسخين السيارة لفترة بدت طويلة لقاسي، لكن في نهاية الأمر التفت سليمان وسأله:

" إلى أين يا قاسي؟"

" طريقنا الصحراء."

ضغط سليمان على بدال البنزين وبدأت السيارة في التحرك وأدار المساحات ليمسح الندى عن زجاج السيارة ثم تهادت السيارة على الطريق. دمدم سليمان:

" الصحراء. " شرد وهو يكمل : " أي غاية! "

رد قاسي بنبرة هادئة دون أن يلتف إليه ، شعر سليمان أن بها لزوجة ضايقته:

" قلت طريقنا الصحراء، أما الغاية فستعلمها حين نصل."

فكر سليمان أن قاسي يتصرف مثل رجال المخابرات في مسلسلات الجاسوسية الخائبة بالتليفزيون فتبدل ضيقه بمرح داخلي، وزاد الضغط على بدال البنزين فانطلقت السيارة مشاركة إياه في مرحه الخفي.

طال الطريق حتى بدأت الرمال تظهر وتزداد حضورا حتى طغت على كل شيء وأصبح الطريق ثعبانا أسود ناعم يتلوى بينها. شعر أن الصحراء تقابلهما بترحاب وتحفظ. ظلت السيارة تتوغل في طرق تضيق لتصبح مدقات باهتة صعبة ومنهكة حتى تكاد تتلاشى غائصة في الصحراء. واصل

القيادة بصعوبة حتى استوقفه قاسي قائلا:
" أظن أن علينا ترك السيارة هنا. فلن تفيدنا بعد هذا."

ترجلا عن السيارة. وبدأ كل واحد منهما يفرد ظهره ويتمطى. تلفت قاسي شمالا ويمينا ثم بدأ في المسير. تبعه سليمان وهو يفكر مرتابا: قاسي يسخر مني في كل هذا. يدخلني عالمه ويحاول إقناعي أنه عالمي أنا الآخر. يكاد يقنعني. ربما يخدعني لسبب لا أدريه.

لكنه تذكر (مارج) الذي غشيه وكاد أن يتجلى له، واستعاد المدينة التي تشتعل بوهج الحلم والجنون. اضطربت خطواته فرفع رأسه لينظر إلى قاسي الذي يسبقه بمسافة صغيرة، فاحتواه اتساع الرؤية وأُخِذ بهدوء المكان فترك نفسه للسكينة وصفاء الزمن المعلق.

أفاق على صوت قاسي وهو يلتفت إليه ويقول وقد أنارت وجهه ابتسامة جميلة:

" من المؤكد أننا سنلحق بالقافلة ... طال الوقت أو قصر."

أصابته عدوى ابتسامة قاسي الجميلة فبش وجهه وعلته ابتسامة وأخذته الخفة وبدأ المسير، قدماه تتابع قاسي بلا كلل ولا وهن، وعيناه متعلقتان به لا يحولهما عنه، كأنه يخشي إن غفل عنه ثانية يختفي في هذه الفلاة اللانهائية.

القافلة

تجاورا بالصمت. يلفهما اتساع بلا حدود. تتابع الخطى يرسم خطين طويلين من آثار أقدام الرجلين. تتشابه الآثار في بداية الطريق لكن مع الوقت يعتريها تغيير طفيف. لكنها تظل تتتابع وتتوالي بلا توقف. ينتفي الجوع والعطش ولا يتلاعب بهما سوى خداع الرؤى والسمع.

تقدم قاسي بخطوات قليلة أمام سليمان فأصبح هو الشيء الوحيد المتحرك أمامه في كل هذا الاتساع، تباطأ أكثر كي يتأمله أكثر . بدا له متوافقا بالكامل مع صحرائه هذه، كأنه أحد كائناتها الجميلة . التفت مشيرا بيده لاتجاه الشرق :

" أهلي البشريون .. مساكنهم هناك."

ثم رجع وأكمل مسيره. همّ أن يسأله: ألن نمر عليهم؟ لكنه وجده قد عاد لصمته وسيره فلم يستزده شيئا.

اختلفت أشكال الصحراء رغم ثبات مكوناتها، فلم تخرج عن البراح الرملي والكثبان الرملية والصخرية، لكنهما ظلا يتابعان حتى اللحظة التي أشار فيها قاسي إلى شيء بعيد لم يتبينه سليمان. ظل يحملق حيث أشار قاسي. كان الأفق يتبدل وتتلاعب نقاطه وتميع في غيامات صغيرة ظلت تتمدد حتى استقام شكلها. قلب أسود يتعاظم مغلفا بغبار أصفر باهت تتطاير بأطرافه شوارد حمراء تتمازج مع السماء حولها. ظلت القافلة تتهادى وتتقرب حتى واجهتهما وأكملت طريقها. وفي نهايتها انضما إليها بلا كلام، فقط غمغما بالسلام.

إن حجم الأبل كبير جدا. لم يكن سليمان يتخيل هذا. تذكر أيام رحلات الكلية، وركوب الجمال والتنزه بها. لكن هذه الإبل تكاد تكون عملاقة وقوائمها أطول مما تصور. وجوهها قبيحة لكن حركاتها تناسبها تماما. القافلة ونحن تربطنا الشمس معا بسلاسل من صمت. كتلة متحركة في اللاشيء ساكنة رغم إيقاع وقع الجمال.

اعتراه الضيق بهذه الفكرة، فكرة التعلق الدائم الممتد مع أشعة الشمس والسير اللانهائي بالقافلة.

اقترب من قاسي ومال عليه وهمس في إذنه:

" أشعر بضيق لا حد له."

رفع قاسي رأسه وظل ابتسامة على وجهه. انتظر أن يجيبه لكن قاسي ظل صامتا وأكمل سيره دون أن ينبث بكلمة.

" أكاد أشعر بالندم ."

أسرع قاسي قليلا فسبقه وكأنه لم يسمعه. أحبط سليمان قليلا لكنه لم يتوقف عن المسير. حاول أن يشغل نفسه ليتجنب ضجره وضيقه بمراقبة ركب القافلة. غير أن التتابع الآلي المستمر أعياه

وأصابه بما يشبه النعاس، فلم يعد يرى سوى ظهر قاسي الذي يتقدمه ويتابع تطاير ذرات الرمال التي تتناثر بخطواته. يهز رأسه قليلا عله يفيق ويرجع يحاول متابعة القافلة فتعود حركة أعناق الإبل التماوجية ببطء متناسب مع خطواتها فتجعله يغيب مرة أخرى وينساق أكثر فأكثر. ولا يستطيع أن يفكر إلا في جملة واحدة تدور وتدور مع خطواته.

" انضمامنا للقافلة حدث عادي مكرر!!!"

الحادي

الصمت سيد القافلة وربها. ويزيد من سطوته تقاطعه مع صوت الحداء ومواله الموجع. كانت زفراته تتصاعد في وجدان سليمان و تتملك مشاعره. لم يكن يميز كلمات الحادي في بداية الأمر ثم صار الصوت يتضح له ووجد نفسه يردد اللازمة معه بهمهمة خيل إليه أنها تتردد في القافلة كلها.

آهِ آهٍ وآهِ يا قلب

ياللي بدك ترتاح

الخطوة حاملة الصبر

والشوك جرّاح

والرمل خانق شوق

تحت القدم نواح

آه آه ياقلب

دالعيون ما تنام

الحلم فوق التل

والأمل خذلان

الشمس حارقة الماي

والعبد عطشان

والقمر يضوي ضي

ويغيب أيام

آه دا الوشم محفور

بين جناب الصدر

للقدر مرسوم

والجبين العالي والعيون السود

راحوا فين راحوا فين ياقلب

لاجل الحياه ماتعود

آه آة يا قلب آه آآآآآآآه *[1]

هذه الآه الأخيرة يختم بها مواله ممدودة آسية وكابية. حارقة للقلب ومسقمة للفؤاد .

يردد سليمان وحده آه وآه يا قلب .

ثم يرجع الصمت ليسود.

[1] من أشعار مها عافية

الفردوس

" ها هي الجنة . فردوسنا المفقود."

هكذا صاحت فجأة فتاة من القافلة تجلس على هودج مزركش في منتصف الصف. صوتها بين الرجاء والدهشة. لم ير سليمان سوى يدها الممدودة من ستائر الهودج. يشير أصبعها إلى حيث تنظر. و انتابت القافلة حركة طفيفة مخلخلة تماسكها ورتابتها. التفت سليمان بحركة لا إرادية إلى قاسي حتى قبل النظر إلى حيث تشير الفتاة إلى مرادها، وبداخله تساؤل طاغ ...." جنة ؟!" وكأن كلمة جنة أو فردوس تقع خارج إطار اللغة والفهم. كلمة تأتي من قواميس مغفلة.
لم يعره قاسي إي اهتمام. فكر سليمان: " كعادته منذ أن قدمنا."
بحثا عن محاولة للفهم والتعقل، نظر سليمان إلى جنتهم. هناك في أقصى مجال للرؤية كانت توجد واحة نضرة تتماوج بها شتى درجات اللون الأخضر. لاحت لسليمان كوردة متوحشة تقتحم هدأة المكان. اتجهت القافلة صوب ينبوع الخضار الفائر. وكلما اقتربت القافلة تبين ملامح الواحة أكثر، وبزغت بين الأشجار الوارفة قباب من ذهب يلمع ويعكس أشعة مجنونة من الشمس وأبراج عاجية سامقة ومنارات مرمرية شهباء. ظلت القافلة تقترب من هذا السحر الحي إلى أن دخلت فيه، وما أن فعلت حتى انفلتت وانفرط عقدها، فسار الناس أشتاتا بين دروبها المورقة الزاهية. أشجار لم ير سليمان مثلها من قبل. كانت الحدائق منسقة بهية ولكن هذا التنسيق لم يفقدها جمالها الحر ولم يقيد من طبيعتها النزقة.

شعر سليمان بقاسي بجواره فانتبه إليه ورجع له شعوره بالشك والريبة فبادره:
" ليست هي الهدف؟ ...ليست هذه ما نحاول الوصول إليه.. ؟ هه؟
فرد قاسي وهو يلتفت حوله كأنه يبحث عن ضالته:
" سنرى."
فكر سليمان أن قاسي لا يعرف، وانتابته الحيرة فهو دليله على الطريق. أعاد النظر إليه وهو يقف متوسطا هذه الواحة غرائبية الجمال. فتن للحظة بجمال قاسي لكنه تساءل ترى هل ملامحه الحادة الجمال ستناسب هذه الواحة كما بدا له أنها تناسب تماما الصحراء التي تركوها. اضطربت دقات قلبه وفكر هل استغله قاسي كي يصل إلى ما يريده هو؟ هل كان سيرحل لولا سليمان؟ هل كان سيأخذ الدرب وحيدا، شجاعا، مغامرا بكل شيء؟ شتتته هذه الأفكار أكثر. شعر بدوار خفيف فجلس مستريحا على الأرض السندسية واستند إلى جذع شجرة أمام جدول متعرج تتلألأ مياهه بخفة وظل يتابع خطوات قاسي الذي تلفت شمالا ويمينا ثم بدأ بالسير على مهل. شعر سليمان وكأن كل جسده يطالبه بشدة بالراحة وبدأ يدخل في استرخاء لذيذ حالم مع صوت المياه. تداخلت المشاهد أمام عينيه المغلقين ما بين فريدة المستلقية هناك على فراشها الوثير وصوت الحادي وذرات الرمال المتطايرة ، حتى غفا.

الحور

أفاق سليمان من غفوته على أصوات ضحك رائق تنساب إليه. قبل أن يفتح عينيه، شعر بملمس العشب الندي على أطراف أصابعه فظل يمسده بيديه ويمسك برقة حزمات النجيل ويملس عليها عدة مرات وهو منشرح، وعادت له صورة فريدة ووجها المبتسم الذي لم بفارقه حتى بعد أن فتح عينيه فظل يتخيل طيف ضحكتها ويسمع رنينها إلى أن اختفى ليظهر أمامه لألأت مياه النهر وأشجار الحديقة بوريقاتها المنتعشة الخضار وهي تتراقص برقة النسيم. أدار رأسه لمصدر الضحكات فوجد في النهر فتاتين وشاب يتبادلون اللهو ورش الماء بمرح. كانوا عرايا تتلون أجسادهم بانعكاسات رذاذ الماء ويسبحون وزهور قوس قزحية تطفو وتتمايل متراقصة حولهم. تملي في الأجساد البديعة رائعة التقويم. هذه أجساد تنبع من هذا السحر الخلاب وتؤنسه، كأنها مخلوقة للتو بأمر (كن) الإبداع.
أنا لا أحلم.

اعتدل قليلا في جلسته وبقى ينظر إليهم مستمتعا بالبراءة الكلية التي تشملهم. وبعد برهة قام ووقف واقترب من شط النهر وما أن ظهر لهم حتى بادرته إحدى الفتاتين بالتهليل والتحية ثم رفعوا أيديهم ينادونه لينضم إليهم.
غمره إحساس مفاجئ بالانطلاق والحبور فلم يتردد وخلع ملابسه كلها ثم قفز إلى الماء فأنعشته برودته. سبح حتى وصل إليهم وهو يضحك. ابتسمت الأولى وقالت:
" اسمي شوق. وهذه شهد. أما هذا فهو صافي."
فرد وهو في غاية السرور:
" يا سيدي يا سيدي. أ حور وغلمان؟؟"
ردت شهد مقهقهة:
" الله ! ألسنا في جنات خلد؟ "
فقاطعهما صافي وبعض الغضب يعكر ملامحه:

" بالله عليكم."
ثم استدار إلى سليمان وأكمل وسحابة الغضب قد تبددت :
" هاتان الماجنتان وقد رآتاك غافيا هناك على شط النهر قررتا أن تمكران عليك وتخدعانك وتقنعانك أنك الآن في النعيم ذاته، كما فعلتا معي فعلا."
أمسك سليمان بزهرة قرمزية طافية أمامه وقال وهو يهز كتفه:
" وما المانع؟ فلنترك كل شيء لما يليق به."
ثم أكمل وهو يبتسم لصافي وقد شعر بحب أخوي تجاهه:
" ألا تسمى هذا نعيما ؟"
فصفقت شوق وهمت وقبلت سليمان بسرعة وقالت:
" هذا هو الكلام الحق. "
ثم استدارت وواجهت صافي وأكملت:
" أرأيت . لا تعقد الأمور يا صافي."
ثم التفتت مرة أخرى إلى سليمان وقالت بشيء من الجدية:

" كنا ـ شهد وأنا ـ نتسوق ثم سمعنا امرأة تشير إلى رجل وتقول لجارتها هذا رجل القافلة قد أتى ليعد العدة للرحيل. انتابنا فضول شديد وكانت حياتنا لا معنى لها. بائعتان في محل صغير في وسط البلد. نظرت إليها ودون أن نتكلم قررنا أن نتبع الرجل ووجدنا أنفسنا نسير مع القافلة."
صمتت لبرهة ثم قالت:
" أنت كنت في القافلة. أليس كذلك؟"
شرد سليمان للحظة ثم أجابها:
" بلى."
فقالت شوق:
" لقد لمحتك تردد موال الحادي."
فانبرت شهد قائلة بسرعة:
" لا تذكريني. يا له من موال موجع."
فصدق صافي على كلامها:
" نعم. كان موالا حزينا كسكين ينغرز في صدري. كم كنت أتألم وأنا أستمع إليه. "
فرشته شوق بالماء مشاكسة وقالت معترضة بعتاب:
" لا يا صافي. ألم نتفق من قبل؟"
ثم أكملت لسليمان:
" وجدنا صافي حزينا تائها في الحديقة. فلما سألناه عن سبب حزنه قال أن دليله ومن أتى في رعايته لا يريد أن يُفهمه ويتهرب منه. "
أكملت شهد كلام شوق :
" كنا شوق وأنا قد قررنا أنه إذا كانت كل أنواع الجنون تتعاقب فيما رأيناه فأهلا بجنوننا."
ابتسم لها محاولا أن يعي ما تقول:
فأكملت شوق:
" أهلا بجنوننا الخاص، وأقنعنا صافي أن يصاحبنا وينسى دليله الهارب وينضم إلينا في أحلى جنون."
ابتسم صافي بخجل وقد احمرت وجنتاه فأصبح وجهه كالبلور الشفاف. ثم غطس فجأة ليطفئ خجله وخرج مندفعا من الماء وهو يسأل سليمان:
" ما اسمك ؟ "
فكركرتا شهد وشوق وقالتا بصوت ككورس متناغم :
" آه . صحيح . ما اسمك؟"
" سليمان."
فقهقهت شهد وقالت:
" أذن أين الخاتم؟"
وتابعت شوق:
" والجن؟ "
ارتبك سليمان للحظة لكن سريعا ما استعاد مرحه بمتابعة هزلهما فتوالت الضحكات والقفشات. لاحظ سليمان أن شهد وشوق متقاربتان في السن وملامح الوجه واكتمال الجسد، لكن إحداهما أجرأ والأخرى أكثر مرحا. خرج من الماء وتبعته شوق، تجففا بنور الشمس وتمددا على العشب يتبدلان حديثا هادئا بينما ظل كل من شهد وصافي في النهر يسبحان في الماء ويتعابثان حتى تعبا ثم انضما إليهما. هدأوا يستمتعون باستلقائهم بجوار النهر وتركوا أنفسهم لسكون المكان. وظل سليمان يتأمل السماء الحنون التي تظللهم دون قيظ أو برد ويفكر ترى أين اختفى قاسي الآن.

الأسى

نزل العصر بنسائمه الطرية فقامت شهد وارتدت ملابسها وقالت :

" ألم تلاحظوا أنه لم يمر علينا أي شخص حتى الآن. كأن الجميع اختفوا. أين أهل القافلة ؟ وهل يوجد أناس تعيش هنا؟"

ففرد صافي نفسه واستند على مرفقيه وقال:

" هل شاهد أي منكم القصر من الداخل؟"

فقالت شوق:

" القصر رائع وهائل لكنه خاو ولا أبواب له. هذه جنة مهجورة."

فعلق سليمان :

" لا بل مسحورة."

فقال صافي:

" هيا نتجول في أنحائه علنا نصل إلى شيء أو إلى أي شخص يدلنا."

ساروا من درب إلى درب ومن خميلة إلى خميلة. دخلوا القصر من غرفة لبهو لسرداب.

" خواء تام."

قال صافي :

" لا أطيق المكوث به. هيا نخرج."

كانوا قد ضلوا الطريق في متاهة القصر لكنهم في نهاية الأمر وجدوا منفذا فخرجوا ووجدوا نافورة ضخمة تضخ مياه على تمثال من مرمر على هيئة عاشقين مستلقيين في هدوء. جلسوا بجوارها يستجمعون أنفاسهم ويتدبرون أمرهم.

رفعت شهد يدها وقالت بهمس:

" أنصتوا. ألا تسمعون شيئا؟"

فصاح صافي:

" نعم خرير مياه النافورة الجميلة."

فزادت :

" لا شيء أبعد ."

فقال سليمان:

"بلى. إنه نحيب إنسان موجوع."

أرهفوا السمع علهم يعرفون مصدر الصوت. قال صافي:

" أظن أنه يأتي من هذه الناحية."

وافقوه واتبعوا الأنين بين الشجيرات حتى وصلوا لبراح دائري بين الخمائل. تظلله أشجار شامخة. رأى سليمان شيخا نحيلا يكلله بياض الشعر، معرورق اليدين ، ملابسه بسيطة تكاد تكون ثوبا واحدا من القطن الأبيض. لم يشعر بهم الشيخ في نحيبه الذي يهز كيانه كله. وقفوا قريبا منه يراقبونه لا يدرون ماذا يفعلون.

قال صافي بأسى:

" هذا هو الشيخ عبد الرحمن الغفاري، حاولت أن أتحدث معه عدة مرات ونحن في القافلة عسى أن أخفف عنه بكاءه الذي لا ينقطع، غير أني لم أظفر منه إلا بأقل القليل."

تساءل سليمان مندهشا:

"هل هذا الشيخ كان معنا في القافلة؟ لم أره على الإطلاق."

فقالت شهد ببساطة:

" كما أنك لم تلاحظنا دون شك."

فهز سليمان رأسه موافقا.

" نعم . عندك حق. فأنا لم أر أي منكم في الرحلة."

فقالت شوق:

" أرأيت."

فهمست شهد :

" يا له من شيخ مسكين."

تحركت للأمام وهي تكمل:

" لِندنُ منه ربما نستطيع أن نواسيه أو نخفف عنه."

فكرر صافي:

" قلت لك. حاولت عدة مرات لكني لم أفلح. لندعه وحده أفضل."

لكن شهد أكملت سيرها إليه فمشى الباقون خلفها ببطء. انحنت عليه ونادته :

" سيدي!"

لمست كتفه برقة، فرفع الشيخ رأسه لها فبان احتقان عينيه بالاحمرار وبياض لحيته الكثة ونظر إليها، فتراجعت شهد للوراء ببطء وكأنها أخذت بشعور ما. تأملته لبرهة ثم قالت وقد اعترى صوتها رعشة بها حزن دفين:

" سيدي. أظن أني أعرفك من قبل. "

لم ينبس بكلمة وأدار نظره فيهم ثم رجع ينظر إلى شهد التي أكملت :

" أشعر أني قد رأيتك وتكلمت معك. سيدي أنا أعرفك."

فنظر الشيخ مرة أخرى إلى الآخرين ثم رفع يده وأشاح بها. فتقدم صافي من شهد ولف ساعده على كتفها محتضنا إياها وقال لها مهدهدا:

" هيا يا شهد. لا فائدة . لا تزعجيه."

" لا. انتظر."

تملصت من ذراعه برفق وانحنت مرة أخرى على الشيخ وبدا صوتها أكثر حزنا:

" سيدي عبد الرحمن رد عليّ من فضلك."

فهمهم الشيخ دون أن يرفع رأسه :

" فقط دعوني وشأني. أرجوكم."

تقدم سليمان وأمسك بشهد وسحبها برفق إلى الوراء ثم أمسك بصافي بذراعه الأخرى وهمس لشهد:

" هيا يا شهد. يكفي هذا."

تركت شهد نفسها تنساق مع سليمان وهو يبعدها عن الشيخ عبد الرحمن. انضمت شوق لهم وأكملوا سيرهم دون كلمة. مشوا متجاورين كل منهم يفكر في هذا الشيخ وهيئته الحزينة البائسة ويخمنون ما وراء حزنه الطاغي. ظلوا في مشيهم حتى ابتعدوا تماما وخفت صوت النحيب حتى اختفي.

أول من تكلم فيهم كان صافي، قال واجما:

" يا لكل هذا الحزن."

فقالت شوق بضيق:

" لا تدعوا هذا يؤثر فيكم. "

ثم ألتفتت إلى سليمان وقالت:

" لنجلس هنا في هذه البقعة الجميلة، ولتقص علينا يا سليمان قصة هذا القصر المسحور."

التفوا تحت شجرة هائلة ، ثمارها دفقات من نور غامض بدأ يشع مع غروب الشمس. وبدأ سليمان حكايته.

حكاية القصر

يحكى أنه قبل الزمان بزمان، كانت هذه البقعة من الأرض قفراء مستوحشة، وأن أمير البلاد ولي العهد جميل المحيا رقيق الطبائع كان في قافلته هو وعروسه الوضيئة الباهرة، في طريقهما لإتمام مراسم الزفاف في المكان المقدس عند التقاء جبال الودّ بوادي الزين، إلا أن المحبوبة الأميرة لم تحتمل الطريق. قيل لعنة أهل الليل، لعنة أولاد الغجر، قيل حر البيداء، قيل أن قلبها الرهيف انفطر من العشق والانتظار، أو ربما من قسوة فرح تحقيق المحال. سقطت المسكينة في جب الحمى حتى انزوت فيه آخذه معها روح الأمير وشتات عقله.

جن جنون الأمير بعد أن واروها التراب دون إذنه، فارتمى عليه وأخرج جسدها قابضا عليه دون أن يجرؤ أحد أن يقترب منه وظل يبكي حتى احترق فؤاده وخار عزمه، ظل حاضنا إياها يهدهدها كطفل رضيع، فهمس وزيره في إذنه باسم الواحد القهار الذي يُحيي ويميت . فنظر إليه ذاهلا فاستطاعوا أن يخلصوا جسدها من يديه المتشبثتين به. وانسلوا بها برفق وأعادوا دفنها في هذه البقعة المقفرة التي شهدت آخر قبلاته لها.

أبى الأمير الذي سلم بأمر الله وقضائه أن يرحل ويترك قبرها، وأقسم بحبه لها أن يحول قبرها هذا إلى فراديس لم تر مثلها من قبل. وبدأ بشاهد القبر، فقال : اتركوه بلا نقش ولا كتابة فإن ما لا يستطاع التعبير عنه لا بد أن يكتم. ثم أمرهم ببناء هيكل حول الشاهد ثم أحاطوه بمنارة دائرية مضلعة تعكس الأنوار من كل جانب ثم أقاموا فوقها قبة من الذهب الخالص. لكن كل هذا لم يرض الأمير فكان على مدى سنين وسنين يزيد إلى الهيكل الأصلي منارات وقباب وجدران بدأت عارية ممسوحة في أول الأمر ثم ازدانت بزخارف بسيطة ثم تداخلت تلك في تناغم لا مثيل له من الروعة والاتزان ، يتمازج به الجمال والجلال.

وكلما ازدادت الهياكل والقباب، ازدهرت الحدائق حولها، فلقد غرست الأشجار والنباتات التي أمر بإحضارها من جميع بلاد مملكته التي تسع شرق الأرض وغربها. وأحاطوها بأنهار من ماء سلسبيل، وأمر علماءه فحفروا قنوات تنوعت من عسل نقي وأخرى من لبن صاف وخمر معتق، تنبع كلها من أماكن خلابة مسحورة.

وبمرور الأعوام اتسعت هذه الجنة ففاقت الحدود، ونمت وأورفت وعلت المنارات أكثر وأكثر وتعددت قبابها الذهبية أشكالا وأشكالا. وتداخلت متاهاتها وسُمع في أروقتها موسيقى هامسة مع النسيم والطيور وألحان ما يعرف سوى الله من أين تأتي وتسابق جميع رعاياه إلى إرضائه باقتراحات جديدة كل يوم حتى أصبح مقره هذا أعجوبة العالم واتجاه المسافرين والرحالة.
حكم الأمير وقد أصبح الملك الآن بعد موت والده وأسماه " متعة المشتاق" وأسماه الناس " متاهة العشاق" لما تحتويه من آلاف الغرف والدواوين والإيوانات والأركان والحدائق والأنهار.
لم يعد له من متعة سوى أن يتنقل بين أركان جنته المصنوعة ويتفقد جمالها جزءاً جزءاً. سنوات وسنوات إلى أن جاء يوم كان يتنزه فيه كعادته في الصباح الباكر وطرق دربا صغيرة، بدت وكأنها لم تؤنس من قبل وفيها وجد في نهايتها حجرا مستطيلا أملس عاريا من النقوش موضوعا بشكل يتجافى مع ما حوله، فيؤرقه هذه الحجر بإحساس مبهم. فيستدعى حراسه فورا ويأمرهم قائلا:

" ارفعوا هذا. إن الذي وضعه لا يعرف روعة جمال " نزهة المشتاق" .
ثم مضى وتركهم ينزعون الحجر عن موضعه.

ضباب

صمت سليمان فلم ينطق أي منهم بكلمة. تراجعت شوق ومالت بجذعها للوراء وأسندت يديها على الأرض وأطاحت برأسها للخلف ناظرة إلى النجوم في السماء. أما شهد فكانت تحتضن ركبتيها وتنظر إلى الأرض ثم رفعت رأسها ونظرت إلى صافي الذي تساقطت من عينه دمعة فمسحها دون أن يلمحه أحد. كانت الحكاية قد اقتنصت أرواحهم وعلقتها في متاهتها.

بعد فترة صمت همهمت شهد بصوت تسحبه من بقايا الحكاية:

" إنها قصة حزينة."

فرد عليها صافي مؤكدا على كلامها:

" أما آن للحزن أن ينتهي؟"

ظل سليمان مندهشا من أين أتى بهذه الحكاية التي رواها لهم الآن. فهو لم يكن يعرفها من قبل لكن ما أن قيل له قص علينا حكاية هذا القصر حتى فرضت نفسها عليه. مرت قشعريرة على ظهره.

رجعوا للصمت مرة ثانية حتى قالت شوق التي كانت تنظر إلى السماء لفترة طويلة حتى أحست أنها تسبح في فضائها:

" النجوم تضيع في الضباب."

التفت سليمان إليها ثم رفع بصره للسماء ثم أعادها للحديقة حولها فلاحظ أن الضباب يزداد فعلا. فأكد كلامها:

" نعم إن الضباب بدأ في كل مكان."

مدت شهد يدها إلى صافي فأمسكت بيده وأخذت تربت عليها بحنان فرنت خشخشات أساورها كأجراس رقيقة تقرع من بعيد، ولم تتكلم. ظلت الأشياء تختفي وتضيع في الضباب الذي انتشر وأحاطهم تماما فلم يعد أي منهم يرى أي شيء حتى كفي يديه. ولم يبق سوى أصوات أنفاسهم وخشخشة أساور شهد.

بعد فترة طالت قال سليمان:

" يبدو أن علينا أن ننتظر ظهور الشمس الذي أعتقد أنه أوشك حتى ينقشع هذا الضباب."

هل أخذتهم كلهم غفوة؟ لا أحد يعرف. فلم ينبث أي منهم بأي كلمة وتلاشت الأصوات كلها بعدئذ وذابوا تماما في مملكة الضباب العتية.

لكن بظهور الشمس على استحياء بأشعتها القليلة بدأ الضباب رويدا رويدا في الانقشاع كما توقع سليمان، إلا أن هذا الضباب أخذ معه كل ما حولهم وما أن تجلى لهم الأمر ووضح لم يجدوا سوى أنفسهم في صحراء جرداء، لا أثر فيها لقصر أو حدائق أو أنهار.

التفتت شوق وقالت لسليمان:

" لو لم نسبح معا في النهر أمس لقلت أنه وهم السراب."

لم تكن مندهشة، وللحق لم يكن أي منهم مندهشا. بالنسبة للشاب صافي كانت مفاجأة الصورة المختلفة هي ما أدهشته قليلا لكن عدا ذلك بدا لهم أنه منطقي إلى حد ما أن يلتهم الضباب كل شيء. لكن ما أرعبهم فعلا هو اكتشافهم اختفاء القافلة أيضا. فلم يعد لها أي أثر على الإطلاق.

قال صافي وهو يتفقد الرمال حوله.

" لا يوجد أي أثر في الرمال لإبل أو لبشر."

فردد سليمان بخوف مقبض:

" قاسي!"

فرد صافي:

" نعم . ما أقسى أن يضيع منا الدليل وسط صحرائنا هذه."

تفكر سليمان قليلا ثم أردف:

" الصحراء عدو لنا الآن."

فقالت شوق بسخرية ممزوجة بالأسى:

" وقد كانت منذ الأزل."

ألتف صافي حول نفسه يدقق نظره في كل اتجاه ثم جلس وهو يقول:

" دليلنا اختفى مع القافلة. علينا الآن أن نمكث معا حتى الأمان."

ولكن شوق هبت واقفة وقالت في ضجر جاف:

"أنا ذاهبة. لا يهمني اتباع أي دليل غريب الآن."

ثم أشارت إلى قلبها بحركة تمثيلة مسرحية وأكملت :

" الدليل هنا."

وقفت لبرهة بنفس الحركة ثم ألتفتت إلى شهد ومدت يدها إليها وبنظرة وجلة سألتها:

" ألن تأتي معي؟"

قامت شهد ببطء ولكن بتصميم واضح وعندما اعتدلت واقفة شدت جسدها والتفتت إلى سليمان وقالت:

" آسفة . أنا سأتبعها."

ثم نظرت إلى صافي وأكملت بابتسامة جميلة:

" فلتعتن بنفسك يا صافي."

ثم انحنت عليه وقبلته على خده قبلة سريعة ثم رحلتا.

عِ هذا

لبث سليمان وصافي ساكنين برهة وهما يتابعان اختفاء كل من شهد وشوق في المجهول.

التفت صافي إلى سليمان وقال وهو ينظر إليه في رجاء:

" لم يعد لي دليل غيرك."

فكر سليمان في هذه المهزلة الساخرة. هو أيضا يفكر في قاسي الذي تبخر مع الآخرين. ود أن يشرح لصافي أنه أيضا فاقد للدليل، تائه ، وإنه مثله ضال. و تساءل أين أنت يا مارج. التفت إلى صافي وقال:

" بالله عليك يا صافي، كيف يكون هذا ممكنا؟ "

واجهه صافي وقال:

" لقد خدعت عدة مرات ، والطريق يضيع منى دائما."

استفزه كلام صافي وهم سليمان أن يقول له أن كل مشاعره لعب عيال، لكنه في نفس الوضع ويشعر بنفس المشاعر. صافي يتألم وربما كان ألمه عميقا غائرا إلا أن ألمه بسيط غير مركب ولا معقد، ربما لذلك يشعر أنه صبي يلهو. كره سليمان مشاعر التعالي التي شعر بها تجاه صافي ، ولام نفسه لأنه يمر بنفس التجربة لكنه يقيم حيرته أكثر من ألم صافي. اقترب منه وربت على كتفه وقد شعر بعطف تجاهه. ثم قال وقد أعيته الحيلة لجهله التام الذي يشعر به الآن:

" دعنا ننتظر حتى نفكر في الأمر."

فتلفت صافي حوله ثم رد:

" الشمس ستحيل المكان جحيما."

هز سليمان رأسه بحزن وقال:

" ربما كان هذا ما يجب علينا أن ننتظر."

جلس صافي متهالكا ولم يزد أي كلمة.

أملَ سليمان أن يتجلى له مارج . أملٌ بدأ كاليقين مع هجير الشمس الطاغي ثم تبدد مع مرور الوقت . شعر أن كل ما جرى وهم لا يكذبه سوى حقيقة هذه الصحراء حوله.

قال صافي :

" أشعر بالنعاس ، سأغفو قليلا."

تمدد على الرمال وكأنه لا يشعر بسخونتها المتزايدة. بدا نومه هادئا وديعا وكأنه ينام في مهد. تأمله سليمان وفكر أن صافي يصغره بخمس أو ست سنوات. يميزه صفاء روحه الذي ينعكس على جسده المسجى أمامه في طمأنينة تتعاكس تماما مع حالته .

ظل سليمان ينتظر بلا جدوى والصحراء حوله تتحول إلى سعير هائل، وصافي راقدا لا يشعر بها ولا به ولا بألمه الذي يكاد يقتله أو يسلمه للجنون.

هب واقفا وصرخ فجأة :

" أين أنت يا مارج؟"

صرخ بكل ما أوتي من أمل ويأس:

" مارج ..... مارج!"

شعر أنه سيفقد وعيه، فقاوم قدر استطاعته . هو يعلم أن الوعي فقط هو ما سيوصله بمارج.

برتقالي... أحمر ...

" ع هذا يا سليمان. حقا ما أبشع أن نفقد الدليل لنترك للجدب في الصحراء. لكن الأكثر بشاعة أن نجهل الدليل.. ع هذا."

أفاق على صافي وهو يهزه برفق.

المدينة

" مدينتنا؟!"

صاح صافي غير مصدق وقد اكتسى وجهه بحمرة شفيفة والتفت إلى سليمان وأكمل غاضبا:

" لم كانت الرحلة إذن؟ لم كل هذا التعب والعذاب. والأمل الكاذب ، ما هذا ؟"

رد سليمان وهو يربت على كتفه:

" عليك أن تجيب أنت على هذا السؤال."

كان هذا الرد غير مقنع لأي منهما فغمغم صافي وهو ينظر إلى الأرض:

" أي أن.."

ثم صمت حائرا.

" سنرى عندما نغوص فيها."

هز صافي رأسه عدة مرات مفكرا. ثم رفعا رأسيهما تجاه المدينة التي تلوح قريبة لهما.

وقال سليمان:

" نعم . هي مدينتنا دون شك. ولكن فلندع لها اليد العليا ولنتركها ترشدنا."

وأكملا مسيرتهما في اتجاهها.

وفعلا تركا ذاتهما للمدينة فانغمسا فيها تماما. فتفتحت لهما كوردة عملاقة تعبق بالخرافة والمتع ، كمغارة على بابا مترعة بكنوز لا يحصيها الخيال. وأصبحت لهما كتيه الملاهي، فلا درب يشبه الآخر ولا متعة تقارب أخرى.

ليل وراءه ليل ونهار قبله نهار، حتى فاحت لهما المدينة بكل مباهجها وشياطينها.

وصافي ما برح يعلق في كل مرة بدهشة طفولية ومرح وخفة:

" أي مدينة هذه ! أين كانت ؟ أو أين كنا نحن منها؟"

يفكر سليمان ويردد:

" هنا. هنا.

أسطورة المجد

كان سيلمان وصافي يحتسيان عصيرا طازجا على مقهى " عنبر الأنفاس" وقد حل بهما التعب إثر التنزه في شارع الببغاء الطويل المشهور بأشجاره السامقة ومحلاته العامرة. كان المقهى يعرض على شاشته الكبيرة أغان لمطرب وحوله راقصات فاتنات.

" ما أجملهن."

" معك حق."

رشف صافي من عصيره ثم تابع المارة خارج المقهى.

" لا أعرف كأن المدينة تتجدد كل يوم."

هز سليمان رأسه موافقا. ألتفت صافي إلى إعلان هائل على الحائط المقابل. فأشار إليه وقال متحمسا:

" انظر هناك. انظر إلى الإعلان الكبير على المسرح المقابل. "

رفع سليمان رأسه فوجد أمامها بناء جميلا بزخارف عربية دقيقة ومكتوب على مدخله " مسرح شهرزاد"

فقال :

" نعم هذا مسرح شهرزاد العريق. أتعرف من رأيته يمثل على خشبته منذ سنين؟"

غير أن صافي قاطعه كعادته عندما يكون منفعلا ولا يفكر في شيء سوى أن يعبر عن ما يريد أن يقوله:

" انظر، إلى الإعلان، لا إلى يافطة المسرح، انظر إلى الإعلان. البطلة."

كانت عينا صافي تشعان بانفعاله ووجنتاه اكتسبتا احمرارهما ثم أكمل وكأنه انتصر في موقفة حربية:

" أليست هذه شوق. أليست الصورة الكبيرة لشوق؟"

تأمل سليمان الصورة المرسومة بعناية فائقة. بلى كانت شوق كما عرفها وأيضا كما لم يعرفها. لم يكن الإعلان ملصقا مطبوعا عن صورة فوتوغرافية لكنه كان مرسوما على الورق مثل إعلانات الأفلام القديمة. نفس الطريقة ونفس الألوان كأي صورة دعائية بسيطة. إعلان عن المسرحية المعروضة على خشبة المسرح وصورة شوق تتوسطها وتحتل أكبر مساحة فيها. لكن الصورة مرسومة بيد فنان عاشق محب. فأي شخص يراها يتأكد من هذا. مر سليمان بعينه على الجمال الغامض الذي يشع من وجه شوق. حار هل هذا الإشراق المدهش ينبع بالحق من روحها أم من الفنان الذي رسمها بكل الحب.

مر بائع جرائد يتأبط مجموعة من المجلات والجرائد ويصيح على بضاعته. ناداه سليمان وقلب في المجلات فوجد مجلة فنية على غلافها نفس الصورة لشوق. اشترى المجلة وبدأ في تصفحها، مد صافي رأسه من الجانب الآخر من المنضدة وبدأ يتطلع للصور الموجودة مع المقالة المعنونة " شوق أسطورة المجد".

الآن واضح أن شوق أصبحت ممثلة مسرحية كبيرة، نجمة تتلألأ بكل البهاء. تنفرد بصدق خالص وثقة راسخة في النفس والفن ولم تغير اسمها. دار اسم شوق عدة مرات في مخيلة سليمان حتى قاطعه صافي مقترحا:

" ما رأيك يا سليمان، ألا نذهب إليها؟"

أيد سليمان الاقتراح بعد تفكير هين وهز رأسه موافقا بابتسامة مرحة. عبرا الشارع وحجزا مقعدين في الصف الثالث بحظ لا مثيل له حيث إن المقعدين قد تم إلغاء حجزهما أمامهما وقد كانت كل صالة العرض محجوزة.

أمسك صافي بالتذكرتين سعيدا وقال:

" مكتوب لنا أن نشاهدها الليلة."

" حظ سعيد فعلا."

" لنتنزه قليلا حتى يحين موعد العرض."

" هيا بنا."

ظلا طوال سيرهما يتذكران ما مر بهما مع شوق وشهد. إلى أن حان موعد العرض فرجعا إلى مسرح شهرزاد. وفي بهو المسرح رأيا الجموع المتأنقة تشي عنهم عطورهم الفواحة. اتخذا موقعهما بين الجمهور وبقيا يدردشان حتى أذنت دقات المسرح الثلاثة وبدأ العرض. كانت شوق تمثل دور كليوباترا. وما أن ظهرت على خشبة المسرح حتى ضجت الصالة بالتصفيق الحاد لفترة فانحنت تحيي الجمهور ثم رجعت سريعا لاندماجها في الدور. مثلت دورها باقتدار فهي ملكة بعقل بارد متسلط وامرأة حيرى بجسد جوعان وروح عاشقة هفهافة. شهدا لها بالأصالة وقوة التعبير. ولاحظا افتتان الناس بها لدرجة الجنون فهي تتلاعب بجمهورها بكل لفتة وحركة ونبرة صوت. حتى لحظات الصمت بين الكلمات أو الجمل كانت تعلق بها الألباب المفتونة. إيماءات جسدها مايسترو يغير كيمياء الصالة كلها. ما بين الهلع والحزن وانقباض أماني الفؤاد تتلمس نعومة الثعبان بنشوة الانتصار على نفسها وأساها وحبها. قسوة الموت والفراق. زوال مجدها ومجد أسرتها و مجد بلدها.

انفجرت القاعة بتصفيق مذهل. اشترك فيه كل من صافي وسليمان تقديرا لهذه العبقرية التي لا مثيل لها. انهالت الورود من كل اتجاه على خشبة المسرح حتى كادت أن تخفيها. واستمر التصفيق بجنون ووقفت شهد تحيي جمهورها عدة مرات.

حاول سليمان وصافي مقابلتها إلا أنهما أدركا كم هو شاق لما حولها من المعجبين ولما بدا عليها من الإرهاق والتعب بعد العرض الرائع. فاتفقا مع مديرة أعمالها على موعد في اليوم التالي قبل بداية العرض.

تهادى سليمان في سيره بجوار صافي مبتعدين عن المسرح، وهما منتشيان بشعور الامتلاء الذي يتبع عرض فني رائع مثل العرض الذي حضراه للتو. كانت الشوارع خاوية إلا من مارة قليلين والليلة بديعة بسماء تلمع بنجوم سعيدة خليعة في ومضاتها. التفت سليمان إلى صافي قائلا:

" هل لاحظت كيفية استغلالها لكل جزء من جسدها لتعبر عن اختلاف المشاعر التي تؤديها حتى عندما يكون ظهرها مواجها للجمهور ؟"

" صدقها واضح."

توقف سليمان لبرهة وواجه صافي:

" أتظن هذا . "

أجاب صافي متحمسا:

" دون شك. "

ثم بريبة أضاف :

" ألا ترى هذا."

فهمهم سليمان :

" أه طبعا. أعتقد أن صدق الفنان في إتقانه لكذبه "

تحير صافي قليلا ثم أضاف:

" ترى كيف ستقابلنا غدا. "

" سنرى."

شوق

وفي الميعاد المحدد، كانا يقفان أمام باب غرفتها الخاصة في المسرح يستأذنان في الدخول، فسمح لهما بعد برهة.

كانت شوق جالسة باسترخاء على أريكة حريرية حمراء اللون بنقوش كشميرية صغيرة وكبيرة بدرجات متباينة من اللون الأحمر، وترتدي روبا ملفوفا حولها بعناية. كان واضحا أنها لم تضع المكياج بعد. بدت بسيطة وجميلة. وخلفها كانت تقف مساعدتها تنتظر إي أمر منها. ابتسمت وأشارت لهما مرحبة:

" تفضلا."

فكر صافي أنها تعاملهما كأي معجبين عاديين. اعتدلت شهد قليلا في جلستها وقالت معتذرة :

" آسفة. قبل العرض أحاول أن أجمع قواي وأسترخي قليلا. فاعذراني."

ابتسم سليمان وقال بصدق دافئ:

" ما أروع أداءك يا سيدتي، يا له من سحر."

فردت بنبرة بها دوائر التكرار:

" من أي جريدة ؟ .. أرجوكما . تفضلا بالجلوس."

قدم لها سليمان باقة الورد التي اشتراها من أجلها، بينما كان صافي يضحك بهدوء لأنها لم تتعرف عليهما بعد، مما جعلها تلتفت إليه باندهاش، ثم رجعت ثانية إلى سليمان شاكرة للورد الذي أخذته مساعدتها واستدارت لتبحث عن مكان تضعه فيه.

أعادت الدعوة مرة أخرى لهما بالجلوس فجلس سليمان أمامها. بينهما ظل صافي واقفا يتفرج عليها مبتسما فردت له شوق الابتسامة بينما كان يقول سليمان :

" قد شاهدنا العرض ليلة أمس. كم كان رائعا."

بدا عليها بعض الانتباه ثم قالت :

" إني قد سمعت صوتك من قبل."

ثم أكملت وكأنها ترى شيئا لا يراه أحد غيرها:

" إني أتذكر الأصوات جيدا. صوتك هذا..."

فقال صافي وهو يكمل ضحكته وصوته كله يميزه نبرة مرح طاغ:

" هذا سليمان وأنا صافي."

هزت رأسها ببطء كأنها تحاول أن تتذكر ثم قالت:

" آسفة .رغم أني أتذكر الصوت. لكن هل أنا أعرفكما من قبل؟ "

تغير التعبير على وجه صافي إلى الانزعاج وقال بعناد طفل كبير:

" ألا تتذكرين حقا؟"

ارتعشت ذقن شهد للحظة ثم قالت شاردة:

" في مخيلتي أطياف، لكنني.."

حدق سليمان في عينيها وقال:

" كنا معا في القافلة."

رددت باندهاش:

" القافلة ؟!"

فقال صافي بانفعال:

" نعم . الصحراء. تُهنا معا."

فأكمل سليمان متمتما بصوت يكاد يكون غير مسموع ونبرة فيها قسوة مفاجئة:

" كنا نبحث عن جحيم."

فنظر إليه صافي في كمد واعترض:

" عن فردوس."

ثم التفت إلى شوق وقال مترددا:

" و...شهد."

تململت مساعدة شوق وشعرت ببعض الاضطراب والخوف وبدا عليها أنها ستطلب منهما الانصراف. ونظرت إلى سيدتها كأنها في انتظار أمر ما وقبضت على جوبتها في حزم. لم تلتفت شوق لها لكنها نظرت إلى سليمان مستفهمة.

" نعم يا شوق. تذكرين القافلة."

فاعتدلت شوق في جلستها وانتبهت وقالت:

" نعم نعم أتذكر الآن. القافلة والقصر المسحور. نعم بالطبع صوتك أعاد لي كل المشهد. الأمير وقصره المسحور."

شردت قليلا وبدا على صافي الانشراح فهم أن يتكلم لكنها أردفت:

" نعم أتذكر لكنه كان مشهدا واحدا وقد عانينا في تصويره كثيرا. أه يا للزمن الذي يمر. أنا حتى لم أشاهد هذا الفيلم بعد انتهائه"

ثم أشارت إلى سليمان وهي تهز رأسها لتؤكد تذكرها لصوته:

" كنت أنت الراوي الذي عليه أن يقص حكاية القصر المسحور."

ثم انتفضت قائمة وقالت:

" يا ربي. يا لها من تجربة مريرة وشاقة. لم أكررها أبدا. فلم تكن فكرة الفيلم ولا السيناريو يعجبني من البداية. كما أني قد أرهقت في تصويره كثير."

أشارت بيدها لمساعدتها لتهيئة الملابس ثم قالت:

" أتعرف شيئا ؟ رغم الإرهاق اليومي على خشبة المسرح لكن السينما أكثر إرهاقا وأقل استمتاعا..."

ثم ضحكت ضحكة فيها حس مسرحي وقالت بتواضع النجوم:

" على الأقل بالنسبة لي."

كان صافي ينظر إليها وقد غير الذهول ملامحه فبدا كأنه معكوس على مرآة غير مستوية. هم أن يتكلم وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه لكن سليمان قام مستأذنا للانصراف. انحنى قليلا ولثم يدها ثم قال:

" يا لك من ممثلة عظيمة."

ثم التفت إلى صافي وقال بحزم:

" هيا بنا يا صافي."

وضح التردد على صافي كما لو كان لا يريد الانصراف. فتقدمت شوق منه وأمسكت بيده بين يديها وقالت وقد بدا الصدق عليها:

" أتريد شيئا؟"

ظل صافي صامتا وارتبك فأدار عينيه بين سليمان وشوق. أبقت شوق يده البيضاء المثلجة بين يديها في انتظار كلماته، فقال برجاء وصوت منخفض:

" هل تعرفين...شهدا؟"

نظرت إلى سليمان فابتسم، فقالت وهي تطلق تنهيدة طويلة وقالت :

" آه. أنتما هنا إذن من أجله."

وتركت يد صافي ومدت ساعديها على امتدادهما بحركة مسرحية فانفتح الروب قليلا فظهر جسدها للمحة فأحكمته حولها مرة أخرى وهي تدور. وفكر سليمان إن جسدها لا يزال يحتفظ بكل بهائه وبريقه كما لو كانت خارجة للتو من النهر يوم لقائهما الأول.

أعادت جملتها مرة أخرى:

" أنتما هنا إذن من أجله."

فقال صافي:

" أقول شهد."

مدت يدها لمساعدتها فناولتها شنطة يدها بسرعة فأخرجت منها بطاقة مكتوبا عليها اسمها.

" نعم. بالطبع . سأكتب لكما عنوانه."

انحنت ورفعت ساقها ووضعتها على شفة الأريكة فانشق الروب عنها وأسندت عليها البطاقة وتناولت القلم من مساعدتها وكتبت العنوان ومدت يدها لتناوله لصافي وما أن هم لأخذه حتى غيرت رأيها وأعطته لسليمان وهي تغمز لصافي مداعبة فابتسم لها رغم الحيرة التي ظهرت على وجهه. تناول سليمان البطاقة وشكرها ثم انصرفا.

الدليل؟؟

ما أن خرجا من الغرفة حتى اختطف صافي البطاقة من يد سليمان وبحلق فيها. ثم أدارها في يده عدة مرات. على وجه منها لم يكن مطبوعا عليها سوى اسم " شوق". وعلى الظهر بخط متعرج لكنه لم يفقد رقته " فهد العابد" ثم العنوان.

" فهد العابد**!** من هذا ؟ طرشاء شوق هذه أم ماذا؟ أقول لها شهد تعطينا فهد ؟"

فضحك سليمان من انفعال صافي فضحك صافي هو أيضا. ثم أعاد النظر في البطاقة وأدارها عدة مرات جديدة كأنه يستخرج منها شيئا جديدا. ثم صاح فجأة:

" أيكون فهد شقيق شهد؟ "

نظر إلى سليمان ثم استبعد الفكرة:

" لا لا أظن. أليس كذلك يا سليمان؟"

كانا قد خرجا من المسرح إلى الشارع بهرجه ومرجه. فرفع سليمان رأسه إلى أبعد نقطة في الطريق حيث يبدو الأفق من بعيد وقال:

" لا أظن."

"إذن؟**!**"

" ربما كانا نفس الشخص."

"**هه!**"

" نعم. شوق ليست ساذجة أو صماء."

فقال صافي بحزن :

" نفس الشخص؟ لم يعد عندي أي قدرة على الفهم."

شعر سليمان بحزن صافي المؤلم فربت على كتفه وأحاطه بساعده. ظلا لبرهة يسيران دون أن ينبسا بكلمة، كانت خطواتهما بنفس الإيقاع والصوت حتى وصلا إلى حديقة " نفرتاري" بطرازها الفرعوني وجلسا تحت عمود هائل بتاج على هيئة زهرة اللوتس ومضاء إضاءة مريحة للعين.

قال سليمان مكملا الحديث الذي انقطع:

" ليس من المهم الفهم الآن."

" كيف؟"

وقف قبالته ووضع يديه في جيوب سرواله وأخذ عدة خطوات في اتجاهين متعاكسين ثم أردف في النهاية:

" تقبل علك تصل."

شرد صافي ولم يعلق. ثم أخرج البطاقة مرة أخرى من جيبه وهزها أمامه. فقال سليمان ببساطة:

" لنذهب غدا ونر"

" عندك حق. غدا نعرف. "

" أما الآن أنا أعزمك على أكلة لا مثيل لها. هيا بنا."

قفز صافي من المقعد الحجري قائلا:

" هيا أنا أموت من الجوع."

وطوال العشاء انتابتهما موجة من الجزل بل ودعيا إلى مائدتهم فتاتين كانتا تتعشيان بجوارهما فطابت السهرة وطالت حتى ساعة متأخرة من الليل. ثم اعتذرت الفتاتان عن تكملة السهرة وتبادلا الهواتف ليوم آخر وسهرة أخرى.

أتم سليمان وصافي الليلة بنوم هادئ لا تتخلله أحلام أو كوابيس. وفي صباح اليوم التالي بعد أن تناولا قهوتهما وإفطارهما في مقهى " الجنينة والشباك" النوبي الطراز، انطلقا إلى العنوان المدون على البطاقة. استقلا المترو إلى حدود المدينة ومنها ركبا حافلة إلى مقر فهد.

كانت المؤسسة التي يديرها فهد مهولة. عدة أبنية ضخمة أنيقة لها طابع ما بعد حداثي. وكان عليهما أن يمرا على عدة أشخاص بداية من أمن البوابة الكبيرة إلى مبنى الاستقبال ومنها مبنى فرعي ثم المبنى الرئيسي الذي به مكتب السيد فهد العابد. وللحق كانت البطاقة التي باسم النجمة " شوق" وعليها التوصية ككلمات " افتح يا سمسم " الشهيرة وسهلت عقبات كثيرة فما أن يقرأ أي موظف اسم شوق حتى يتقدمهما بكل أدب إلى المسؤول الذي يليه. وأخيرا من السكرتير الثالث للثاني للأول لمدير المكتب حتى يقابلهما السيد فهد. وكلما زاد عدد الموظفين كانت ابتسامة صافي تتسع حتى نمت وصارت ضحكة ولكن قبل أن يصلا إلى فهد مل اللعبة واستشاط غضبا وقال لسليمان وهما في انتظار السكرتير الثاني:

" ما هذا الذي نفعله؟ طظ في شهد. فلنرحل. لندع كل هذا."

فهدأه سليمان وهو يضحك:

" طظ فش يا سيدي فيها ."

فضحك صافي مرة أخرى وأكمل سليمان:

" أ لم تكن أنت من سأل شوق عن شهد؟"

فصاح صافي:

" بلى . كنت أسأل عن شهد وليس عن فهد. ولم أكن أتصور كل هذه المتاهات."

" لكن بطاقة التوصية التي أعطتنا إياها شوق سهلت أمورا كثيرة."

" من فهد هذا؟ حتى شوق التي أصبحت يشار إليها بالبنان وصارت مشهورة جدا قابلتنا بكل سهولة."

ثم أصابه شبه هياج وهب قائلا:

" فلنرحل. لا داع لرؤيته . لن نستفيد شيئا. لنذهب ولا نضيع وقتنا فإن متع المدينة لا تنتهي."

فقال سليمان بتوتر مفاجئ وقد شعر إن صافي يضغط عليه بطريقته هذه:

" أ تظن هذا؟"

شعر صافي للتو بتغير سليمان و كان يخشى تقلباته فسليمان صبور جدا عليه لكنه غير متوقع على الإطلاق، فقال بوجل:

" أظن ماذا؟"

" أتظن أن متع المدينة لا تنتهي؟"

زاد خوف صافي وشعر برعب طاغ مفاجئ ينغرس في قلبه. فجلس بجوار سليمان وهمس :

" لا أحتمل الحياة بدون دليل هاد.. وأنت لي الأب والأخ والصديق والدليل المعين. أعرف أنك قد مللت وسئمت كل هذا..."

ثم احتبس صوته ولم يكمل وروحه جزعة من أن ينطق لسانه بما يهاب. ماذا لو هُجِر؟

كان ديكور مكتب السكرتير بارد وكأنه كبسولة فضائية. مرر سليمان عينه على الأشياء المعدنية الباردة حولهما ثم قال لصافي بأسى:

" لم أصل إلى ما أريد."

فسأله صافي:

" أ لم تجد أي متعة بعد تجلي المدينة لنا؟"

فتنهد سليمان وقال بحس بارد منعكسا عليه من برودة ما يحيط بهما:

" كل العذاب تمخض عن لا شيء. ربما عن بعض العجائب التي لم تعد تثير أحدا."

فقال صافي بحزن:

" كل ما أرجوه منك فقط إلا تختفي دون أن تحذرني قبلها. لن أتحمل أن أفقد دليلي مرة أخرى."

فزفر سليمان ساخرا وقال بحكمة أب لابنه:

" أ لم تلاحظ أنه لم يعد للدليل معنى هنا."

ثم تردد في عقله رجع صوت مارج الذي اختفى منذ التيه في الصحراء، فقام واقفا ثم نظر إلى صافي في مقعده وابتسم له بمرارة ثم انحنى عليه وقبله على جبينه وهو يقول:

" يا بني ! لم يعد للدليل في المدينة معنى ."

ثم التفت إلى السكرتير الذي رجع للغرفة لتوه وهو يقول مبتسما لهما:

" تفضلا من هنا. فالسكرتير الثاني في انتظاركما."

فقام صافي وسار بجانب سليمان يتبعان الرجل.

فهد

فهد، كاسمه عملاق رشيق وقوي، انسيابي الحركة وحذرها في الوقت ذاته. عيناه تبرقان بتصميم يفوق الحد. غرفة مكتبه واسعة لدرجة مزعجة. لكن فيما عدا هذا كانت متزنة في كل شيء ولا يوجد بها تلك البرودة والفضائية التي توجد في باقي المؤسسة.

لما دخلا كان فهد يقف خلف مكتبه ممسكا ببطاقة شهد بين أصابعه ويتأمل الخط المميز لصاحبته. صاح السكرتير باسمها فرفع فهد رأسه عن البطاقة وابتسم وتحرك من خلف مكتبه متجها إليهما بوجه مرحب وهيئة مسيطرة . مد يده مصافحا وقال:

" أهلا أهلا. كل من يأتي من طرف عزيزتنا شوق فهو ضيف غال."

قدم سليمان نفسه ثم صافي. فقال وهو يدعوهما للجلوس على أريكة في جانب المكتب:

" نعم . طبعا . أتذكرهما جيدا."

اسندا ظهرهما على الأريكة المريحة وقبل أن يجيبا أردف فهد:

" لم تكونا في حاجة إلى بطاقة توصية من العزيزة شوق."

سعد صافي فبانت نواخذه في وجهه المشرئب بالحمرة وبدا الارتياح عليه.

قال سليمان :

"يسعدنا تذكرك."

" نعم أتذكر كل الأحداث ومن يستطيع أن ينسى. لكنها ماض سحيق. دون شك أتذكر صوتك يا سليمان تقص علينا حكاية الأمير و قبر حبيبته في الحدائق الرائعة وكيف اختفى كل ما كان حولنا."

دخل الساعي وانتظر أمر فهد، فالتفت إليهما وسألهما:

" عصائر أم قهوة ؟"

أمر الساعي بما طلبا. وأكمل كلامه إلى صافي:

" كما أتذكر حزنك يا صافي وبكاءك عندما اختفى .. ماذا كنت تسميه ؟ دليلك؟ ألم تكن تسميه هكذا؟ "

كان صافي يحاول أن يربط بين ما يراه وبين ما يعرفه، بين فهد وشهد. لكنه كان سعيدا أن فهد على عكس شوق قد تذكرهما على الأقل، كما يتذكر حزنه على دليله الهارب. هز رأسه فقط ردا على سؤال الرجل.

ثم التفت فهد إلى سليمان أكمل:

" كما أتذكر صديقك قاسي يا سليمان. قاسي كان اسمه. أنا ذاكرتي حديدية من النادر أن أنسى وجها أو اسما عرفته من قبل. "

ثم قام واقفا واستدار في اتجاه المكتب كأنه سيأتي بشيء ليريه لهما. فرد سليمان :

" نعم يا سيد فهد. يبدو أن لك ذاكرة ممتازة بحق. "

لكن في الوقت ذاته كان لذكر اسم قاسي أمام سليمان وقع عجيب، كأنه كان محض خيال. تعجب سليمان من نسيانه قاسي طوال المدة السابقة كأنه لم يكن يعرفه في يوم من الأيام. وقال لنفسه لعلي كنت ظالما شوق لما أبدته من نسيان. دخل الساعي بالمشروبات. قال فهد :

" اعذراني . ثانية واحدة وأكون معكما."

قال سليمان:

" نحن الذين نأسف لتعطيلك ."

" لا لا على الأطلاق أنا أبحث عن شيء أعتقد أنه سيهمكما."

وبينما كان سليمان يرتشف عصيره ببطء، تأمل فهد في موقعه. وراء المكتب على جانبي فهد كان يوجد تمثالين بالحجم الطبيعي لملك مصري قديم. واضح تماما أنهما أثر حقيقي وليسا تقليدا. قام سليمان واتجه نحو واحد منهما وقال:

" اسمح لي يا سيد فهد."

فرفع فهد رأسه مما يبحث عنه في المكتب ونظر حيث ينظر سليمان ثم قال:

" بالطبع. تفضل. "

أكمل بحثه وهو يكمل حديثه:

" أنا عاشق للفن بكل أشكاله. ومجمع تحف أيضا."

ثم صاح فجأة:

" آه وجدتها." ثم قال لسليمان:

" بعد أن تنتهي من مشاهدة هذه التحفة فلتنضم لي أنا وصافي لأريك شيئا أعتقد أنه سيعجبك."

واتجه إلى الأريكة حيث يجلس صافي وجلس بجواره ووضع مظروفا كبيرا أمامهما. رجع سليمان لهما سريعا وجلس على المقعد المجاور لفهد. ظهر على فهد الانشراح وهو يفتح المظروف ويخرج منه ملفا ويفتحه :

" حتى العزيزة شوق لا تدري شيئا عن هذا الملف."

ومن الملف ظهرت عدة صور باهتة الألوان.

صاح صافي بفرحة:

" يااااه. يا خبر! غير معقول."

أمسك كل منهما بصورة وبقوا لبرهة يتطلعون فيها ثم لأخرى وهكذا حتى انتهت المجموعة. كانت صورا لهم في الصحراء معا، في حدائق القصر. كاد صافي أن يقبل فهد وقال له:

" أنت رائع."

فرد فهد ضاحكا:

" على الإطلاق أنا أحب جمع الأشياء. وهذي تضمنا كلنا. كان يجب أن تكون لدي. لكن كما تريا للأسف الصور تبهت تماما، كان على أن أحفظها على حاسوبي وأغير من طبيعتها كي تظل كما هي. على العموم لا يهم."

فقال سليمان الذي أخذ بالمشاهدة لكنه حاول أن يستعيد نفسه:

" فعلا لا يهم، على رأيك. من الجميل أننا نتفرج عليها الآن لكن ليس من الضروري الاحتفاظ بها."

فقال صافي:

" كيف هذا أرى أنه شيء رائع مشاهدتها عدة مرات. أنا سعيد جدا بها."

وضع فهد آخر صورة على المائدة أمامه ثم أسند ظهره على الأريكة وتنهد وقال:

" وعبد الرحمن الغفاري. أتتذكرانه؟ هل قرأتما أيا من أعماله؟ يا لها من مأساة! عليه رحمة الله. كنت أحبه كثيرا وأقدره كثيرا."

فتساءلا بدهشة وصوتين كأنهما جهر و همس:

" مات؟"

فقام فهد فجأة وقال:

" أ لم تعرفان؟ هذا موضوع يطول شرحه. لن نتكلم هنا، أنتما مدعوان عندي اليوم على الغذاء في المنزل .. "

قاطعه رنين هاتفه المحمول فقال وهو يتجه إليه على المكتب:

" أرأيتم هذه زوجتي ، كنت سأكلمها حالا . أريد أن أعرفكما على أسرتي."

ثم أكمل وهو يفتح خط الهاتف:

" ألو يا حبيبتى . نعم. كيف حالك؟ .. كنت سأتصل بك حالا.. عندنا على الغذاء ضيفان عزيزان... نعم.. لا ... صديقان من سفر بعيد."

نظر إليهما وغمز لهما كأنهم يتواطؤون على جريمة ما. فكر سليمان أنه يعاملهما فعلا كأصدقاء قدامى.

" .....نعم . كما تحبين... سنرى اليوم. إلى اللقاء حبيبتي سلام."

أغلق الخط ووضع الهاتف في جيبه وقال:

" أراهن زوجتي كل يوم على جودة الطعام الذي سيعده الطاهي. لكنها دائما تتمتع بذوق عال حتى في اختيارها لأصناف الطعام.. شيء جميل، رغم أنها تكسب كل مرة. أعني الرهان.. شيء غريب أليس كذلك؟"

ابتسم صافي وسليمان ولم يعرفا بماذا يجيبان على ما قاله ولا كيف يعلقان على شيء خاص به فظلا صامتين. ولما وجدهما لم يتكلما قال:

" ما رأيكما ؟ أتريدان مشاهدة مؤسستي حتى يحين موعد الغذاء؟"

فعلق صافي:

" نعم هي فكرة جيدة فعلا. "

فأكمل فهد:

" كما سأريك يا سليمان مجموعة جميلة ونادرة من التحف التي أمتلكها، فلقد رأيت نظرة إعجاب يا صديقي. "

وأشار إلى التمثالين المصريين. وتأملهما للحظة ثم رجع لسليمان:

" أنت تحب الفن."

" نعم. "

" نحت فقط."

" النحت والعمارة والأوبرا. رغم أن عملي كان بعيدا جدا عن هذه المجالات."

فسأله صافي:

" أه. يا سليمان. ماذا كان عملك من قبل. أنت لم تقص لي أبدا عن نفسك؟"

فعلق سليمان ضاحكا وفي بعض الضيق أيضا:

" أنت لم تسأل أبدا. كنت أعمل ببنك."

وبدأ يتحرك لينهي المحادثة:

" على العموم انتهى كل هذا الآن."

فتقدمهما فهد والزهو على ملامحه:

" إلى مؤسستي العزيزة."

ثم التفت إليهما وأضاف:

" إنها فخري."

سارا وراءه في أنحاء ودهاليزها يتفرجان ويستمعان إليه، لكن كل منهما كان يفكر في أمر بعيد.

العائلة

حتى أثناء الذهاب إلى بيت فهد الذي لم يكن على مسافة كبيرة من المؤسسة، جلسوا في السيارة الفارهة وكل منهم رغم حديثهم يشغله أمر ما بعيد. انفتحت البوابة الكبيرة آليا ما أن اقتربت السيارة، وتهادت في ممر طويل يحفه النخيل الملكي من الجانبين. كان الممر طويلا ومتصاعدا. لاحظ سليمان التماثيل المتناثرة في الحديقة. كان معظمها من الطراز اليوناني بأوضاعه المتمايلة وأجساده المتناسقة. لاح لهم المنزل يقترب بمعماره الجليل وطرازه الفريد.

فسأل سليمان: "هنا هو عقب مبهورا لم يسأل"

" يا له من طراز فريد في المعمار. "

فرد فهد :

" نعم . عندك حق. لهذا البيت حكاية قبل أن أشتريه. فلقد بدأت الحكومة المصرية في تشيده للخديوي على طراز شرقي ولكن الحكومة القيصرية الألمانية طلبت من الخديوي شراء المكان للقيصر فوافق الخديوي وبدأ معماريو القيصرية في تكملة البناء ولكن الحر ب قامت بين ألمانيا وبريطانيا فأممت هذه كل الممتلكات الألمانية في البلد وأكملت بناءه للمندوب السامي لكنه قتل. ثم استعادت البلد القصر فاشتراه تاجر لبناني ثم أفلس فباعه لعائلة يهودية ثم هاجرت وباعته لثري عربي ومنه أنا اشتريت القصر. لكن للحق لكثرة التعديلات التي تمت عليه حاولت أن أرجعه إلى توافقه الأول فطلبت المعاونة من استشارية معمارية شهيرة عالميا وقد كان، وكان عملها عبقريا للحق."

فقال صافي مبهورا:

" نعم. "

توقفت السيارة أمام سلالم المدخل. ترجلوا من السيارة وتقدمهم فهد:

" تفضلوا. "

على بداية الدرج كانت حرم السيد فهد تقف في انتظارهم. جمالها الأخاذ البارد يناسب وقفتها المترفعة بلا حدود. جمال يعرف أنه من عصر بائد متيقن أنه هش قابل للكسر. ابتسمت مرحبة بهم. وتقدمتهم للبهو الداخلي.

" أهلا بكما. تفضلا بالجلوس قليلا في الصالون. "

دخلا الصالون الفرنسي الطابع. وفي منتصف الحائط كانت لوحة كبيرة لماكس أرنست تمثل حصان أحمر بعرف وذيل أزرق داكن ينظر وظهره للمشاهد إلى مراعي صفراء وخضراء.

وما أن استقروا في جلستهم حتى دخل عليهم شابان وفتاة فقدمهم أبوهم بحب ظاهر وقال مزهوا:

" سالم، كامل ، وسعاد."

تقدموا مرحبين بثقة لابد أن يحوزها من كان ابنا لهذا الرجل و تلك المرأة. فهم يجمعون بين سطوة أبيهم وقوته وربما غرائب انفلاتاته البرقية وبين جمال أمهم وترفعها. تبادلوا السلام جميعا وفكر سليمان أنه رغم أن الثلاثة متقاربو السن في منتصف العشرينيات من عمرهم ورغم تشابهم إلا أن سعاد بها تباعد ساهم يطل من عينيها، تباعد مختلف عن التباعد المتعالي لوالدتها، هو أقرب ما يكون للتحفز المسيطر عليه بشدة. وما أن جلسوا حتى بادرت سعاد سليمان قائلة:

" آسفة . عندما دخلنا الغرفة كنت تتأمل اللوحة. أنا أحبها جدا. ما رأيك فيها؟"

فوافقها سليمان وأيد كلامها فأكملت:

" ترى إلى ماذا ينظر الحصان؟"

ابتسمت والدتها وقالت :

" رفقا بالسيد سليمان يا سعاد. سؤال من أول كلمة، ونقاش ووجهات نظر."

فقال سليمان :

" لا سعاد عندها حق . فاللوحة جميلة فعلا."

فقال والدها:

" سعاد تخرجت في كلية الفنون الجميلة وتستعد للتحضير لدرجة الماجستير. واللوحة قد اشتريتها بناء على نصيحتها."

فتدخل صافي قائلا:

" أرى أنه ينظر إلى باقي الصورة أي إلى المراعي. أليس واضحا؟"

فقال سليمان:

" أعتقد أنه ينظر إلى شيء لا نراه نحن لأن حتى نهاية اللوحة نحن لا نرى أي أفق فلابد أنه ينظر إلى الذي لا نراه نحن."

فأكدت سعاد :

" نعم. أنا أرى هذا أيضا وأظل أتخيل ما يراه ولا نراه نحن. "

فقال سالم :

" لا يهم ما يراه . فما يراه هو لن يراه غيره حتى ولو كانت نفس الأشياء."

علقت حرم السيد فهد متجهة بكلامها إلى الضيفين:

" هذا يعرفكم على سالم. فلسفة."

فقال سالم ضاحكا:

" أنت تقلصيني هكذا يا ماما. سالم فلسفة . يا سلام. "

فربتت على فخذه وقالت:

" أنا أقصد أنك خريج فلسفة ."

فقال أخوه كامل:

" هو أيضا مغني من طبقة التينور."

فتحمس سليمان :

" حقيقة . رائع أنا أعشق الأوبرا جدا. "

" أنا أتدرب يوميا ويسعدني أن تستمع إليّ."

" أشكرك. من المؤكد أني أحب."

ثم وجه سليمان كلامه إلى أخيه كامل:

" وأنت يا كامل تغني أيضا؟ يبدو أن العائلة كلها مهتمة بالفن."

فتكلم فهد قبل أن يجيب ابنه:

" للحق الفضل في هذا يرجع إلى زوجتي. أنا أحب التحف وأحب تجميعها ولكن معها أشعر أن للأشياء روح تحاور وتشاكس وتمرح وتسخر."

ثم التفت إلى ابنه كامل وقال:

" آسف أني قاطعتك."

فقال كامل وبدا أنه أكثر خجلا ورقة حتى أكثر من أخته سعاد.

" أبدا يا أبي. في الحقيقة أنا أحب الغناء جدا ولكن الشرقي."

سأله صافي :

" وهل تجيد الغناء مثل سالم؟"

فابتسم كامل بخجل وكأنه يعتذر عن شيء ما:

" للأسف صوتي ليس جميلا كصوت سالم."

فقالت والدتهما:

" هما على طول الخط في اختلاف. وكل يوم يحكِّمانا بين أغنية شرقية أو أريا من أوبرا ما أو ليدر أو أي شيء يخطر على بالهما. "

فتحمس كامل وأكمل :

" نعم . اليوم أنا سعيد بوجودكما هنا. في الحقيقة نحن نحترم اختلافاتنا وأنا شخصيا أرى أن صوت أخي رائع بلا جدال ومتمكن أيضا وأتمنى أن يتخذ الغناء بجدية أكثر ويحترفه. "

فقال سالم:

" نحن نحب اختلافاتنا ولكن كل واحد منا يبدو وكأنه يغير على اختياره."

ضحكت أمهما وقالت:

" ونحن المساكين فيما بينكما. فهذا يصدح من غرفته أصوات جهورية ومن غرفة هذا أرباع التون وكأننا في مهرجان موسيقي مجنون."

التفت سليمان إلى سعاد وقال لها :

" وأنت يا سعاد تنحازين لمن؟"

" أنا أحب ما أحب. في بعض الأحيان كامل وفي بعض الأحيان سالم."

فهم كامل أن يتكلم، فقال فهد :

" أنتما تصدعان الضيوف. حرام عليكم. سيقولون أننا عائلة مجنونة."

فقال صافي :

" حاشا الله. أنتم عائلة جميلة. "

فقال كامل:

" سأسمعكم غناء رائعا ."

وقام سالم:

" وأنا أيضا سأسمعكم غناء رائعا."

فقالت الأم برفق:

" بعد الغذاء. "

فجلس سالم وكامل وقالا بأدب:

" حاضر."

جاء السفرجي ووقف بالباب، فقالت سيدة المنزل وهي تهم واقفة :

" تفضلوا ."

وتقدمت أسرتها والضيفين إلى غرفة السفرة وجلسوا حول المائدة ، فكان للأب والأم طرفيها

والأولاد والضيفين على الجانبين. اتسم الغذاء بمرح هادئ وزوال تخوف سليمان وصافي من التعالي المفترض للزوجة والأبناء. فقد طغى أدبهم ورقتهم وحسن تربيتهم على أحاديثهم وحركاتهم.

بعد انتهاء الغذاء انتقلوا إلى الفراندة الواسعة التي تطل على الحديقة المنسقة لارتشاف القهوة التركي، وليكملوا حديثهم الذي صار أكثر ودا وحميمية. كان فهد قليل الكلام كأنه يترك نفسه لمتابعة أسرته الجميلة والإعجاب بها وهو يرى كل فرد منها له شخصية متفردة واثقة من نفسها. فلم يتدخل في الحديث إلا لماما.

استغل سالم لحظة صمت قصيرة وقال:

" أستسمحكم الآن في الاستماع لما يقدمه كامل وفيهما أقدمه أنا لكم."

فقالت الأم:

" ما جديد اليوم؟ "

وضحك فهد قائلا:

" اطربونا اطربونا. يا ويلنا منكم."

أخرج سالم من جيبه جهازا صغيرا ووضعه في سماعة بقوة عالية . وضبط الأغنية التي يريد أن يصغوا إليها ثم التفت وقال:

"هي طويلة قليلا ولكن ..."

فقاطعه كامل :

" هيا هيا لا تضع وقتنا. أريد أنا أيضا.."

" طيب . "

شغل سالم الأريا وجلس وصدحت الموسيقى وصوت رائع . وبقوا جميعا في إنصات ربما ظهر التململ على وجه صافي لكنه كتمه احتراما للباقيين فهو لا يعجبه هذا الصريخ من وجه نظره ويتعجب مِن مَن يستمتع به أو حتى يتقبله.

أما سليمان فكانت الموسيقى كعالم أبعد من الحلم، بدا أن حياته كانت في عالم آخر به أشباح متداخلة لفريدة والعمل والسيارة والأوبرا وقاسي. فريدة ..عروستي المحبوبة أين أنت؟ لكنه تغلب سريعا على الأشباح وترك العنان لنفسه لتلتحم باللحن والصوت الجميل الذي يعشقه، وكلما تقدم اللحن كلما تمددت روحه من جديد حتى كادت تملأ الكون حوله.

انتهت الأريا بعد فترة فتنهدت سعاد وقالت:

" نعم عندك حق إنها جميلة فعلا."

فالتفت سالم إلى سليمان وصافي. فقال سليمان:

" اختيار جميل يا سالم. ناتالي ستوتزمان تغني هاندل."

هلل سالم وصاح :

" أنت رائع يا سليمان." وهب وقال :

" دعني أقبلك."

ومال عليه وقبل رأسه. ضجت الأسرة بالضحك. وقال فهد:

" طول عمرك مندفع يا سالم. "

فرد عليه وقد أحمر وجهه قليلا:

" أردت فقط أن أريه كم أنا سعيد لمعرفته هذه الأريا وأيضا عرف الصوت. رائع."

فقال صافي :

" هل تقول لي ماذا كانت تقول هذه الست؟ "

فرد سالم وقال :

" الأجدر أن يقول لنا سليمان، فهو كما أرى سيفيدنا أكثر."

فأعترض سليمان:

" لا بالطبع أنت من سيفيدنا أكثر . أنا فقط هاو للأوبرا ، أما أنت فدارس وتمارس الغناء الأوبرالي."

فعم الابتسام وبدأ سالم يشرح لصافي ولكنه قبل أن يتكلم هب كامل قائلا وهو يضحك :

" آسف يا سالم لكن سأقول لصافي شيئا. كنت أمس أحاول أن أقرأ عن الأوبرا فوجدت كتابا في مكتبة سالم عن الأوبرا وبدأت في قراءة المقدمة واسمع يا سيدي."

ثم بحركة مسرحية أخرج كتابا من وراء ظهره ولوح به أمام الجميع فضحكوا. لاحظ سليمان أن كامل قد تخلى قليلا عن خجله بعد الحوار الذي دار على الطعام. أكمل كامل موجها كلامه لأخيه:

" أليس هذا كتابك يا كامل." " فابتسم كامل وهز يده كأنه يئس من أخيه فأكمل سالم :

" سأقرأ لكم من الكتاب الذي يقدم فن الأوبرا، اسمعوا يا أسيادي: إنها تسلية مسرحية تتمثل في الغالب في نسوة بدينات يجأرن بالشكوى في لغات أجنبية أو يتحسرن على عشاقهن الذين يبدون في مظهر شائن لا يتفق وخيال المحبين ،وليس هذا فحسب، بل إنه إذا ما حاول إنسان أن يوضح القصص الذي وراء هذه الشكاوي العلنية وذلك عن طريق استقراء معاني الكلمات فإنه يصطدم بحكايات سخيفة تدور حول أشخاص يستحيل أن يكون لهم في الحياة وجود، ولكن هذه الحكايات تصور أبطالها في عواطفهم الجامحة تصويرا أخادا كما تؤدي بهم إلى علاقات غير مقبولة في عرفنا للحياة التي نعرفها. ونحمد الله على ذلك."

فقال له فهد :

" منك لله يا كامل، أفسدت علينا استمتاعنا بالأغنية."

فقال سالم وهو يضحك:

" هذا المهرج ينتقي فقط ما يريد. طبعا لو أكمل المقدمة لفهم. على العموم أنا أثق في أن تأثير الأريا مازال ساريا بيننا ، نرجع مرة أخرى إليك يا صافي ، لأني أرى أنك موافق على الكلام الذي قرأه لك الآن كامل. نعم لغة أجنبية . لكن ماذا شعرت عندما استمعت لها. لنر هل نصل إلى شيء دون توضيح الأمر تماما."

قال سليمان:

" من الجميل أن تفهم ما تقوله الأريا لكن ليس شرطا، فمن الأحسن أن تترك لنفسك الفرصة للاستمتاع بها ككل."

تردد صافي قليلا، فاستحثه سالم قائلا:

" تتصور عن ماذا كانت تغني؟"

فتفكر صافي ثم قال:

" أعتقد إنها حزينة وتندب حظها ثم تثور لسبب ما."

فقال سالم :

" أرأيت ؟ "

فقال كامل:

" لكن ماذا تقول فعلا. كلنا شعرنا بما شعر به صافي. لكن ماذا تقول؟"

ففرد سالم يده تجاه سليمان كأنه يدعوه للكلام فهز سليمان رأسه ثم قال:

" زوجتي المحبوبة ، محبوبتي العزيزة ، أين ذهبت ؟ استجيبي لأحزاني.."

فقاطعه صافي:

" هي تغني لزوجتها؟ "

فضجت الصالة بالضحك واحمر وجه صافي وأكمل:

" قصدت لماذا تغنيها امرأة. "

فقال سليمان :

" الدور أصلا لكاستراتو."

فقالت الأم:

" أي لصوت متوسط بين الرجل والمرأة ."

ابتسم لها سالم كأنها تؤيده في حبه لهوايته. لكن كامل استغل الفرصة وقال ساخرا:

" لماذا يضطر المغنى للتخلص من رجولته ؟"

فقال فهد:

" كانت عادة قديمة إخصاء الأولاد ليظل صوتهم نقيا ومتميزا. لكن هذه انتهت منذ قرن تقريبا. لذلك فمن الأفضل الآن أن تغنيها الآن امرأة بصوت غليظ ."

فضحك صافي وقال:

" بصراحة أنا لا أفهم لماذا كل هذا. لكن بوجه عام هي جميلة."

نظر سليمان لسعاد وقال هي بدون شك بها كثير من الحزن فرغم مشاركتها لهم الحديث على مائدة الطعام إلا أنها تميل إلى الصمت. وجهه إليها الكلام قائلا:

" ما رأيك يا سعاد؟ "

فردت:

" على كامل الآن الدور لنر ماذا يقدم لنا. على العموم من الرائع ترك النفس لاغتنام الفرص لأشياء مختلفة يقدمها الآخرون لنا. "

فأكمل :

" وأنت ماذا تقدمين لنا ؟"

فأمسكت بعلبة من المائدة أمامهم وفتحتها وقربتها من سليمان وصافي وقالت مراوغة وكأنها تتملص من الإجابة:

" أقدم لكم هذه الشوكولاتة."

أدرك سليمان أنها تراوغه وتتهرب من الإجابة فشعر بشعور مفاجئ كأنه يريد أن يدبسها أكثر في إجابة ما فقال:

" الشوكولاتة ساحرة ولذيذة لكنها في الوقت ذاته شيء خطير، علينا أن نحترس ونحن نتناوله."

وقبل أن تجيب قالت والدتها:

" هيا يا كامل. ما في جعبتك اليوم إيها الساحر؟"

فهب كامل وأخرج أسطوانة ووضعها في الجهاز وقال :

" دوري فانصتوا إذا سمحتم."

(أوعى يكون فات الأوان ...قلبي اللي فاض شوق وأنغام وطار بحبك ع الأيام، وتاه طيفك فِ الأحلام أوعى يكون فات الأوان. ياما سقيته من الهوان وتركته هايم فِ الأحزان، ولسه جاي تكشف غرامه ونار حنينه وهيامه؟ ياريت صغيت له من زمان، ولا كان أسى ولا كان هوان. أوعى يكون فات الأوان..)

تأوه فهد استحسانا. وخرجت " الله " فجائية من السيدة حرمه. فابتسم صافي لسعاد فبادلته الابتسام. انتهت ليلى مراد من أغنيتها.

صفقت سعاد فانحنى كامل محييا كأنه هو من كان يشدو ثم اعتدل ونظر إلى أبيه وأمه في انتظار فوجد الاستحسان والرضا على محياهما.

قال سليمان:

" الصوت كالبلور، شفاف ."

فاستدار له كامل كأنه ليس متأكدا من تعليقه. فقال سليمان:

" القلب يعشق أي آية جميلة . ولا جدال أنها أغنية رائعة أيضا ، هذا من وجهة نظري. " وقال صافي :

" بالنسبة لي هذا هو الغناء بحق. الله عليك. "

ثم التفت لسالم وأكمل :

" آسف يا سالم. "

فضحك الأخير وعلق :

" كل حر في اختياره."

لكن سعاد قالت لأخيها كامل:

" أريد أن أسألك سؤالا لم أسأله لكما من قبل، هل حضرت هذه الأغنية قبل أن تعرف ماذا سيسمعنا سالم؟"

فأغلق كامل عينيه قليلا واستدار لسليمان وقال:

" كم هي خبيثة هذه البنية!"

ثم وجهه الحديث إلى أبيه وأمه ضاحكا:

" من أين أتيتما بها هذه اللئيمة السوسة؟"

قهقه فهد وقالت السيدة حرمه:

" كشفاك دائما. هه."

جلس كامل بجوار سعاد وحضنها وقبلها وقال:

" الحقيقة أني كنت مستعدا بأغنية أخرى لكني عندما سمعت الأريا من سالم، تذكرت هذه الأغنية ولذلك جعلتكم تستمعون إليها."

رد سليمان مكملا:

" أعتقد أن العملين فيهما نفس الروح. فواحد أو فلنقل واحدة تغني عن العروس التي غابت وبالتالي ضاع حبه والأخرى تتساءل هل فات الأوان للرجوع إلى الحبيب. "

التفت كامل إلى سالم وقال:

" أراك لا تعلق. ألم يعجبك ؟"

فاعترض سالم بضحكة صغيرة :

" وهل أعجبتك أنت الأريا فأنت لم تعلق أيضا سوى بالتهريج."

فوقفت الأم وقالت وكأنها تنهي هذا الحوار :

" لن يتوقف هذا الحوار أبدا."

وكأن هذه الجملة هي الختام الذي اعتادت عليه الأسرة في نهاية الجلسة كل مرة. أكملت معتذرة للضيفين:

" أنا آسفة على أن أنسحب الآن. تشرفت كثيرا بلقائكما."

قام صافي وسليمان وأومآ للسيدة التي اختفت داخل البيت. شعر سليمان ببعض الحرج وقال لفهد :

" يجب علينا أن ننصرف نحن أيضا. فمن المؤكد أن يومك كان طويلا ولقد أخذنا من وقتك الكثير."

فشده فهد من يده وقال:

" يا رجل. أنا سعيد جدا لوجودك أنت وصافي. ومازال أمامنا متسع من الوقت. "

فاستعاد سليمان هدوءه فجلس هو وصافي وقد شعرا بالراحة لوجودهم بين هذه العائلة التي أشعرتهما بنوع من الألفة والحميمية التي وضح اشتياقهما لها. وفكر سليمان كم كان انطباعه الأول خادع بالنسبة لفهد وأيضا للأسرة كلها. أسند ظهره على المقعد سعيدا كما لو كان يستعيد ذكرى كاد أن ينساها. وترك شمس المغيب تغمره بهذا الشعور.

اليوم المشئوم

قال فهد وهو يضع فنجان القهوة على المائدة الصغيرة جانبه :

" عليك يا سليمان بقراءة أعمال عبد الرحمن. "

فقاطعه صافي مستفسرا:

" عبد الرحمن الغفاري؟!"

أكمل فهد وهو يهز رأسه :

" نعم. فأنا أظن أنك لم تقرأ له . "

فأومأ سليمان برأسه نافيا.

فأضافت سعاد وقد بدا عليها بعض الضيق:

" خسارة."

فنظر لها سليمان وكأنه يتأملها ثم أجاب فهد قائلا:

" للأسف لم أقرأ له أي شيء. وللحق لم أكن أعرف أنه كان يكتب."

فقال كمال باندهاش:

" صحيح! لكنه مشهور جدا. "

ثم أضاف حزينا:

" قصدي كان مشهورا."

فأكد سالم:

" هو مشهور فعلا. من العجيب ألا تعرفان هذا . ألم تكونا تعرفاه ، هكذا فهمت من كلام أبي."

فقال صافي في تأثر:

" كلما أتذكر نحيبه الذي كان يعصف عصفا بجسده النحيل، ويديه المعروقتين وهو يبعدني بلطف عنه عندما كنت استزده في الكلام، أحزن. كم هو مؤلم أن أتذكر نظرة الشقاء التي كانت تعتلي وجهه الهرم ولحيته البيضاء الطويلة التي..."

فهب كل من سالم وكامل واقفان وقاطعه سالم قائلا

" لحية بيضاء. أي لحية بيضاء!"

وفي نفس الوقت قال كامل:

" يبدو أننا نتكلم عن شخصين مختلفين. "

وأكملت سعاد وقد بدا عليها الحزن تماما:

" عبد الرحمن حتى اليوم المشؤوم الذي اختفى فيه كان فتيا وبشعر حالك السواد. "

ثم تنهدت وأكملت :

" نحن نقصد عبد الرحمن الغفاري صديقنا."

اتجه سليمان إلى فهد بنظره فهز هذا كتفيه بعدم اهتمام وقال:

" هذا لا يهم ."

فبدا على سالم الاحتجاج ونظر شذرا إلى الرجلين ولولا أدبه الجم لانفجر فيهما واهتزت نبرات صوته وهو يقول :

" ما الذي لا يهم؟ عبد الرحمن صديقي أنا وكامل. و لم يكن يكبرنا سوى بعامين. "

فأكمل كامل بنفس الحدة المكبوتة:

" ولم يمض على اختفائه سوى أشهر معدودة ."

ثم هز يده ساخرا وهو ينظر إلى صافي وكأنه يتهمه بالعته:

" عن أي لحية بيضاء تتكلمون؟"

جلس كامل وهو يضع يده على يد أخيه ويوجه له الكلام:

" عن صديقنا يتكلمون."

فقال سالم وقد بدأ في استعادة هدوءه :

" آسف يا أبي . حضرتك تعلم كم هو مؤلم علينا اختفاء عبد الرحمن. "

قامت سعاد وجلست بجوار أخويها وكأنهم كلهم يتحدون ضد شيء غامض باغتهم وأقلقهم وهم لا يدركون ماهيته. بدا الأخوة الثلاثة ككتلة واحدة متوترة حزينة. تطلع فيهم الأب وفي ضيفاه لبرهة حتى قطع سالم الصمت و الحزن باد على محياه الفتي:

" يا له من حادث أليم أن نخسر عبد الرحمن هكذا. أن تنقطع حياته وكأنه تبخر !"

أخذت سعاد شهيقا عميقا وقالت بصوت خفيض:

" كانت كتاباته نابعة من روح حقيقي خبر العالم فاختار شيئا آخر لا نعرفه. "

فهمهم كامل :

" فعلا كتاباته نابعة من إنسان بحق. آه كم خسرناك يا صديقي."

جثم الصمت مرة أخرى وقد أحاط بهم فغلفهم فذكر سليمان بالضباب الذي غشيهم في حديقة القصر ثم أخذ معه كل شيء.

بعدها أكدت سعاد كلمات أخيها:

" نعم. يا لها من خسارة لا تعوض لنا جميعا. يوم مشؤوم يوم أن رحل عنا. "

المرآة

" أراك مشتتا منذ أن تركنا فهد وعائلته."

قال صافي وهو يمد ليلحق بخطى سليمان الواسعة. كان سليمان منذ أن ترك عائلة

السيد فهد شديد التوتر وبدا هذا عليه وعلى مشيته.

" انتابتني أحاسيس مختلفة طوال الوقت الذي قضيناه مع عائلته. في أول الأمر كان الفضول يجعلني كالمراقب المحايد لكن شيئا ما لفت نظري في سعاد حرت فيه."

انتبه صافي كأنه سيعرف حل المعضلة التي لا يفهمها منذ أن رأوا شوق. غير أن سليمان أكمل:

" لم أكن أحدد شعوري تماما لكن ما أن اندفعت العائلة في مرحها وسقطت الحواجز الوهمية حتى تأكدت من شعوري. فأربكني تماما في نهاية الجلسة."

صمت سليمان قليلا ويكمل حثه للخطى ، فأمسك به صافي ليهدأ من خطوته وقال:

" فلنجلس قليلا في هذا المقهى."

وافقه سليمان على اقتراحه واتجها حيث أشار صافي. طلبا شايا بالنعناع ولم يتكلما كأنهما يستريحان من سباق عدو طويل، حتى أتى النادل بالمشروبات ووضعها أمامهما. بدأ كل منهما يرتشف شايه ثم قال سليمان وهو ينظر إلى اللاشيء أمامه لكنه كان يستعيد وجه سعاد وملامحها. التفت إلى صافي وقال وعلى وجهه بدت ابتسامة رائقة أضاءت وجهه كله لكنها لم تمح بعض القلق في العينين.

" إن سعاد تشبه فريدة زوجتي بشكل مثير."

ثم ضحك بإحراج وهو يشعر بأنه يعتذر عما يقوله كأنه أكثر من الحديث عن كلتاهما: فريدة وسعاد.

تلألأت عينا صافي وهو يقول بحماس يناسب الابتسامة التي علت وجه سليمان وضحكته :

" حقا! "

ثم هز رأسه وهو يتخيل فريدة في مخيلته، ثم أكمل:

" إن سعاد جميلة."

ربما ليست جميلة الجمال الذي يروقه ، فذوقه بعيد تماما عن ذوق سليمان، لكنها دون شك جميلة.

أخذ سليمان شهيقا وكتمه للحظات ثم قال:

" أنا لا أقصد الجمال وحده يا صافي."

تردد قليلا ثم أكمل:

" لكن الروح.. النظرة.. ما يطل من العين.. السكنات بين الكلمات. أتعرف؟ مثل النظرة التي من الممكن أن تراها في عيون ممثلة أو مغنية أوبرا قبل أن تنطق ما يعتمل بداخلها. نظرة تلمسك وتمهدك لما ستقوله."

فضحك صافي معلقا:

" يا للأوبرا التي ستجننك."

" يا سيدي أي عمل فني. للوحة مثلا. أو أبسط ..."

ثم نظر حوله ثم أشار إلى نهاية الطريق:

" أترى هذه الشجرة العملاقة هناك؟ انظر لها جيدا. أترى تلك الحركة الخفيفة التي تتحرك بها؟"

" إنه النسيم الذي يحرك فروعها."

" نعم طبعا. لكن ألا تشعر في بعض الأحيان أنها رسائل لك معماة ومخفية عن الآخرين."

" لا."

فضحك سليمان:

" عندك حق. يبدو أني سأتحول إلى نخلة أكلم الأشجار."

فقهقه صافي :

" والله بعدما رأيت شهد، من الممكن جدا أن أجدك بعد ذلك عفريت أو قطة أو حتى .. إنسان."

فشاركه سليمان القهقهة. جاء النادل ورفع الكوبين الفاضيين وهو يرمقهما بابتسامة مشاركة معهما في الضحك وقال:

" الله ينور!"

فزاد من ضحكهما. فبادره سليمان بسؤال:

" هل تعرف شوق؟"

فتوقف النادل وبان الفخر عليه:

" بالطبع . من لا يعرفها في البلد كلها."

" أتتذكر أول فيلم رأيته لها ، أو ربما شاهدتها في مسرحية ما؟"

" للحق لم أرها في الحقيقة أبدا، لكنها قشطة."

" وأول فيلم؟"

" لا أتذكر. كله في القنوات الخاصة . "

ثم أستدار كراقص الباليه ممسكا بالصينية وعليها كل الأكواب وأكمل:

" هي قشطة قشطة."

علق صافي :

" الناس انجنت."

لم يعلق سليمان لبرهة ثم قال:

" لقد أخذت موعدا من سعاد كي أراها الأسبوع القادم، قالت إنها ستكلمني عن عبد الرحمن. وربما تأتيني ببعض كتاباته."

زم صافي شفتيه وقال:

" أظن أنها كانت تعشقه."

هز سليمان رأسه مفكرا. فأكمل صافي:

" هل لاحظت كيف توتروا جميعا بالكلام عنه."

" عندك حق. فلقد كانت الجلسة ممتعة للغاية وقد زالت الكلفة بيننا جميعا حتى جيء بسيرته."

" والأخوين ! هل لاحظت ما اعتراهما. كأننا قتلنا لهم قتيل. في الأمر شيء."

قام سليمان وهو يدفع الحساب وقال:

" فهد لم يهتم."

وقف صافي أيضا استعدادا للرحيل وقال:

" فهد يبدو غيرهم. أنا إلى الآن لا أستوعبه."

" فهد يبدو غيرهم."

سارا متجاورين بلا هدي يفكرون فيما مر بهما في هذا اليوم الطويل.

" هل نذهب إلى شوق مرة أخرى ؟ أريد أن أسألها عن فهد بشيء من التفاصيل."

رد سليمان:

" لا أعتقد أن شوق سوف تفيدك بشيء . من الممكن أن نذهب لمشاهدة مسرحيتها مرة أخرى لكن أن نتكلم معها لن يفيد ."

" عندك حق."

" على العموم ربما عندما أقابل سعاد نستشف شيئا عن عبد الرحمن."

وقف صافي وأوقف سليمان بحركة من يده:

" هل تظن أنه نفس الشيخ عبد الرحمن الغفاري الذي كان معنا. ألا يكون هناك خطأ ما أو خلطا كما يقول سالم."

وقفا للحظات أمام فترينة عرض محل للملابس الرجالي كي يعقد صافي رباط حذائه الذي انحل فانحنى ليتم مهمته وعندما استقام واقفا نظر لسليمان إلى انعكاس صورتهما على زجاج الفترينة. تأمل وجه صافي للحظات ثم تأمله كله جسدا وروحا. إنه يشعر أن فرق العمر بينهما قد اتسع كثيرا في المدينة. قد كنت أكبره بخمس أو ست سنوات على الأكثر عندما كنا في صحراء التيه. أكاد أشعر أن عقدين من الزمان يفصل بيننا الآن.

صاح صافي وقد طال تأمل سليمان للملابس المعروضة :

" يا سلام! ماذا يعجبك في هذه الفترينة ؟ "

" هيا بنا."

لكن صافي لم يتحرك وقد شعر بشيء يشغل بال سليمان. فكرر له سؤاله عن عبد الرحمن بعناد طفولي لم يتغير وقد اعتاد عليه سليمان. فأجابه بشيء من الضيق:

" هو من كان معنا."

لكنه ظل يفكر حتى وصلا فندقهما، هل صافي بسيط حقا كما يبدو؟

نار خابية

كان سليمان يستظل تحت شجرة وارفة عملاقة بزهور بنفسجية راقصة في حديقة الخالدين يحدق في متتالية ألوان الزهور التي تتلاعب أمامه. كانت تماثيل الخالدين أمامه صامتة كأنها من العالم الآخر فعلا، سكونها التمثالي يتعاكس تماما مع تلاعب وريقات الأشجار وزهراتها. يا له من خلود! فكر سليمان. كان مستمتعا بالوحدة وبالهدوء الذي يشمل كل شيء يفكر في سعاد وموعدها بعد يومين. من بعيد لمح القوام المشدود والسواد الحالك للشعر والعينين والحدة في الملامح. كان قاسي يقترب بخطواته الواسعة يبتسم من بعيد. خطر على بال سليمان أن قاسي بشكله هذا أقرب إلى التماثيل التي تتناثر حوله وقد دب فيها الروح. وردد اسم قاسي داخله مع كل خطوه يخطوها في اتجاهه. فكر سليمان أن سؤال فهد عن قاسي وكلامه عنه هو الذي أعاد خلقه مرة أخرى أمام عينيه.

مد قاسي يده مصافحا فقام سليمان للسلام عليه. كانت قبضة قاسي قوية عفية كأنه يؤكد وجوده لسليمان وعيناه السوداوان تبرق وابتسامته تشع حميمية.

" أهلا قاسي."

قالها سليمان بترحاب صادق لكنه يأتي من زمن بعيد، كمشهد مسترجع من عالم قديم قديم.

جلس قاسي بجوار سليمان.

" بحثت عنك كثيرا حتى وجدتك يا سليمان. "

ابتسم له سليمان لكنه لم يعلق. فأكمل قاسي كلامه:

" كنت قد رأيتك عدة مرات من بعد، وترددت في التوجه للسلام عليك. ثم اختفيت تماما ولم أعد أراك أو أعرف أخبارك. ثم بدأت في البحث عنك وتعبت جدا حتى وجدتك مرة أخرى. أريد أن أحكي لك أشياء كثيرة مرت بي."

هز سليمان رأسه يشجعه على الاستمرار في الحديث. لكنه كان يفكر هل يسأله لماذا تركه في الصحراء بلا دليل أو إشارة. لكنه شعر أن قاسي هذا مسكينا وأن لا قيمة حقيقية له. بل الأدهى أنه كان هكذا دائما ، هشا تماما رغم ما يوحيه جسده، وإن كل إيماءاته وتصرفاته التي كان يظنها قوة نابعة منه ما هي إلا دليل دامغ، لم يكن يفسره، على خواء قاسي الحقيقي وافتقاره للنار التي كان يلمح بها له وعلقه بها وبالبحث عنها حتى أنهكته.

هبت رياح ترابية مفاجئة وحملت معها وريقات الشجر كدوامة سريعة، عبرتهما في ثوان فصمت قاسي يحمي نفسه منها بيده. وما أن اختفت حتى أكمل حديثه.

تذكر سليمان بتعب وملل أحاديثهما القديمة التي كانت لا تنتهي. تؤجج شهوتهما للحياة والمعرفة والنار التي ورثوها، فبدا على وجهه علامات السخرية بلا إرادة، فتوقف قاسي عن الكلام وقال متوترا:

" أنت لا تستمع إليّ."

فرد سليمان:

" لا أبدا."

ربت سليمان على كتفه. فقال قاسي متأثرا:

" أتعرف أنه لم يربت أي علي منذ فترة طويلة جدا. بل أكاد لا أتذكر أحد قد فعلها من قبل."

ابتسم سليمان له بود. فأكمل قاسي حديثه وحاول سليمان أن يتابع معه ما يقول إلا أنه سرعان ما شرد مرة أخرى سائلا نفسه هل خاف قاسي من النار فأضاعها أم أنه لم يكن يمتلكها أصلا؟ يا له من مسكين.

كان قاسي يثرثر متوددا قدر استطاعته إلى سليمان الذي كان يجاريه بمودة صافية فيها شفقة لم يستشفها قاسي. كان سليمان هو الذي يعاني من تلك الشفقة لأنه وجدها تتسلل غصبا إلى كيانه تجاه قاسي الذي ما زال يكن له بعض المودة الحقيقية. الوقت يمر وقاسي لا يزال يتحدث ويثرثر وسليمان في عالم آخر يفكر فيما وصل إليه بعد كل هذا. كان يظن أنه سيصل إلى شيء خاف يخلق له عوالم من متع لا تنتهي، متع محرقة مؤججة للروح التي تلتهمها أيام سأم ماضية وحالية. والناس ! كل من رآهم في هذه المدينة العتيقة ، حتى في خلقها الجديد اللانهائي . ألا يتجمد الآن ويتحول إلى أحد هذه التماثيل المنتثرة حوله. يظل جالسا على هذه الأريكة إلى أبد الأبد يحترق داخليا بلا توقف. يا للملل. ما زال يثرثر. في المدينة كل النار خابية. أما النار اللاهبة فهي خادعة مزيفة. يلمح قبسا ضعيفا هنا أو هناك. لكن أتستحق فعلا كل هذا؟ هذه الخدعة اللعوب. ود لو يختفي هذا القاسي الذي يثرثر في تفاهاته التي لا تنتهي ، معادة مكررة. هو اختفى قبل ذلك أفلا يختفي الآن. تخيله وهو يتبخر أو يتحول إلى فقاعة كبيرة تنتفخ حتى تنفجر فشعر بالرذاذ على وجهه. ولا إراديا مسح وجهه بيده سريعا. ضحك فجأة لرد فعله، فتوقف قاسي عن الكلام منزعجا وقال:

" ما الذي أضحكك هكذا فجأة؟"

" لا شيء . آسف . اكمل حديثك."

كان قاسي يتكلم عن حفل زفافه ويصفه بأنه كان رائعا. ولقد ضم بين مدعويه كل شخص مهم في المدينة. وأنه كان يتمنى أن يحضره سليمان. حكى عن الموائد التي رصت بلا حد بأشهى المأكولات من أشهر الطهاة. فلان من المدعوين قال ماذا، وعلق علان على روعة الحفل. أعاد وزاد في وصف الحفل ثم قال هذا للحق رغم أني لم أحب زوجتي. هي كانت فقط زوجة مناسبة له. العائلة والمركز والمكانة الاجتماعية.

وطبعا كم كانت منبهرة بي. ثم سكت للحظة ولاح الأسى عليه وأكمل:

" هل تتصور بعد هذا أنها طلبت الطلاق بإلحاح وتصميم بعد ثلاث سنوات من الزواج وعمر ابنتنا سنتان. قالت إنها لا تستطيع ولا تحتمل أن تعيش معي أكثر من هذا. أتتصور ذلك؟ رغم كل المظاهر الرائعة التي كانت تجمعنا. طبعا أنا طلقتها بكل رجولة. يهمني جدا أن يعرف الناس إني قد انفصلت بشكل لائق متحضر. آه. هي فقط لم تمهلني الوقت الكافي لكي أحبها."

توتر سليمان وهم أن يقول له إنك لا تستطيع أن تحب. إنك لا تستطيع أن تحب أحدا عدا نفسك. وإنك مغرور وتافه ومدع. غير أنه أكمل صمته المشفق. ماذا سيفيد أي حرف يزاد إذا لم يعه هذا القاسي.

سخر سليمان من نفسه عندما تذكر أنه كان يتخذ من قاسي دليلا لطرق أكثر مشقة من أن يحتملها قاسي الذي يتضح له ببساطة الآن. نعم. قاسي نسخة أكثر حسنا وأشد هشاشة وتفاهة من

باقي أهل هذه المدينة. هذه المدينة التي انتسب أنا إليها وأنتسب أيضا إلى تفاهاتها بل أنا أحن وربما اصبو إليها. لم التعالي إذن؟ ورغم بهتان الحلم فها أنا أعترف بأن الحقيقة قاسية مثل أي حقيقة تتجلي بقسوتها الفاضحة وأيضا المراوغة.

" ألست معي يا سليمان؟"

أعاده صوت قاسي إلى الحديقة ومكانه جواره، وسمعه وهو يكمل حديثه:

"ولذلك عندما عرفت أنك تبحث عني يا سليمان في المدينة لكي تراني مرة أخرى، حاولت أن.."

انتفض سليمان واقفا وهو يرى قاسي يقلب الحقائق دون أن يدري ويتوهمها. أبحث عنك؟ لقد كنت نسيت حتى وجودك. لم يستطع أن يستمع إلى أي كلمة أخرى ساذجة من قاسي.

" أنا آسف يا قاسي. علي أن أرحل الآن. عندي موعد بعد قليل. "

لم يتحرك قاسي من مقعده ولم يقف وقد فوجئ بانتفاض سليمان، نظر شاخصا في الخواء حوله أكثر من النظر مباشرة في عيني سليمان. وعندما استدار سليمان ليبدأ في التحرك ناداه قاسي قائلا:

" سليمان."

توقف سليمان واستدار مرة أخرى ليواجهه.

" نعم."

طل حزن بعيد من عيني قاسي كأنه ندم على ماض لم يكن له فيه يد. ثم قال:

" سليمان أرجوك. لا تتركني."

تمهل سليمان للحظة حتى استجمع كيانه وقال برقة وقد شعر بالرأفة تجاه هذا الكائن الهش الذي

عرفه ذات يوم قصي غائم في الذاكرة :

" طبعا. لن أتركك يا قاسي."

كان يعرف أنه يكذب وأنه ربما لا يتذكره مرة أخرى سوى في لحظات تتباعد حتى يختفي تماما في غرف الذاكرة المظلمة المغلقة، فشعر بالتعب والإجهاد من هذه المشاعر التي تنتابه وكأنها تنبت منذ اليوم الأول لولادته. أكمل بصوت مرهق تماما:

" أنا فقط متعب وفي حاجة إلى الراحة. "

ثم استدار وهو يقول:

" سأراك فيما بعد."

ورحل ولم يلتف خلفه.

سعاد

(بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ)

هكذا تمتم سليمان عندما لاحت سعاد عند مدخل حديقة المقهى التي كان ينتظرها فيه. قمحية البشرة وقد ذهبتها شمس رؤوف، شعرها أسود قصير ناعم بلفتين واسعتين تحت إذنيها. عين حوراء واثقة. قد دقيق . بلوزة بيضاء حريرية بياقة بلون أزرق ملكي وجونلة قصيرة مربعات صغيرة متداخلة أزرق ملكي في أزرق سماوي. فتاة جميلة دون شك. تدب بحذائها على الممر بحزم كأنها مجندة في جيش من الأطفال البارعين.

قام سليمان من مقعده ليشير إليها. ورغم أنه وقف بسرعة واعتدل حتى لا يتركها لفترة طويلة تبحث عنه بعينيها إلا أن شيء ما في حركة انتصابه وفرد جسده جعله يشعر بالعجز والإرهاق وهو يراها قادمة ويواجه كل هذا الشباب المتدفق في اتجاهه. لمحته وردت على إشارته بإشارة خفيفة من يدها. تابعها وهي تقترب ولاحظ إمساكها بدوسيه ورقي متوسط الحجم في يدها اليمنى. ظل واقفا حتى دنت تماما فحياها بابتسامة ظن أنها بدت لها ابتسامة باهتة متعبة.

جلست وهي تضع حقيبتها والدوسيه على المنضدة وقالت:

" يا لك من رجل وسيم رغم ما تحاول أن تضع نفسك فيه."

زال فورا إحساسه بالإرهاق والتعب فتغيرت معها ابتسامته وجلس دون أن ينطق ولا حتى السلام. اتسعت ابتسامتها وكررت:

" نعم. إنك وسيم جدا... هل أنت صديق لأبي منذ زمن؟"

فاستند بجذعه على ظهر المقعد وقال:

" نعم."

وفكر أنها تبدو مرحة ومنطلقة، لكن في عينيها قلق وألم تحاول جاهدة أن تخفيه. ورغم أن مجاملتها بدت صادقة إلا أنه شعر كأنها تحاول إن تتلاعب به، لكنه أعاد النظر إليها وأنكر شعوره ذلك، وفكر ما الذي يجبرها على هذا لكنه قرر أن يمتلك هو ناصية الحديث.

" وأنت رغم مرحك حزينة ومتألمة."

وضعت سعاد ساقا على الأخرى وهزت رأسها كأنها تقيم ما سوف تقول:

" من الممكن أن أراوغ شخصا لا أعرفه مثلك، لكن لا أعتقد أنه الوقت المناسب، أو ربما كانت هذه هي اللحظة المناسبة لكي أفهم شيئا كي أتعداه. هل كنت تعرف عبد الرحمن حقا؟"

" نعم. أستطيع أن أقول أني كنت أعرفه."

لم يكن قد تكلم من قبل مع عبد الرحمن. لكنه يشعر أنه يعرفه بشكل ما. تذكر أنه كما قص عليهم حكاية القصر المسحور في يوم ما، وهو لا يعرف حتى الآن ما الذي أوحى إليه بهذه الحكاية التي قد تكون صحيحة أو ملفقة، فيجب أيضا أن تكون إجابته على سؤالها بكلمة واحدة هي " نعم." نعم هو يعرفه بلا شك.

أدارت عينيها تتأمل البجع الأبيض في البحيرة الصناعية داخل حديقة المقهى.

" هل تظن أن هناك بجع أسود اللون؟ "

بجعة سوداء ترقص وأخرى بيضاء تتلوي من الألم، مشهد سريع في مخيلة سليمان وقبل أن يجيبها أكملت كأنها لم تكن تسأل سؤالا:

" كنت أعشقه حتى الموت. عبد الرحمن. كنت أعشقه حتى الموت."

قامت واتجهت للسور القريب وأسندت ساعدها عليه وأعطت ظهرها لسليمان لتراقب بجعة اقتربت منها، لم يقاطع صمتها حتى استدارت مرة أخرى لتواجهه وأسندت ظهرها على السور الواطئ.

" لا يوجد بجع أسود؟ "

هم سليمان مرة أخرى أن يقول لها أنه يوجد في أستراليا بجع أسود لكنها أكملت:

" أو على الأقل كنت أظن أني أحبه لهذه الدرجة."

رجعت وجلست بجواره ووضعت يدها على المنضدة. صغيرة رقيقة مثلها أظافرها المقلمة بعناية تضع طلاء شفافا بزيق أبيض عند الأطراف.

" أظافرك جميلة."

سحبت يدها ووضعتها على حجرها. صمتا لبرهة فقال سليمان:

" كنت تحبينه حتى .. الموت.."

ضحكت.

"أو هكذا كنت أظن. لأني كما ترى لا أزال أعيش رغم موته. في بعض اللحظات أؤكد لنفسي عدم موته. وفي بعض الأحيان أقول مستسهلة هذا كابوس جاثم سرعان ما سينقضي."

أمسك سليمان بيدها فتركتها له.

" لكني أيضا على يقين تام بأنه ـ غيابه أو فلنقل اختفاءه ـ شيء عادي ومتكرر. والأدهى أن لا قسوة متعمدة فيه ولا اختلاف. فقط ألم التواجد بعده ، في عالم لا يحتويه."

تحركت يدها حركة خفيفة سرعان ما همدت وكأنها كانت تنوي سحبها من يد سليمان ، وأمسكت بالدوسيه بيدها الأخرى لكن لم تفتحه، وأكملت:

" أه، على فكرة، أنا لم أقل لك شيئا، هذا الألم الذي تقول أنه واضح في، ليس جديدا علي بسبب موته. هو لم يحبني. كنت قريبة من قلبه جدا دون أدني شك، لكنه لم يحبني. ربما ظن أنه يحبني ولكني على يقين أنه لم يحبني."

" وكيف أتاك هذا اليقين؟"

جاء صوت سليمان محشرجا كأنه لم يتكلم منذ فترة طويلة. تنحنح ثم أعاد السؤال بصوت أكثر وضوحا.

" لأني أنا من كنت أحبه. عندما تعشق تعرف تماما مشاعر من تعرفه حتى لو تنازعتك الأوهام والشكوك والغيرة. فأنت تعرف. تكذب نفسك أحيانا، تصدق نفسك أحيانا لكنك بالتأكيد على دراية طول الوقت. نعم . لم يكن يحبني."

ارتعشت يدها فأحكم سليمان قبضته عليها دون أن تضغط عليها، فسكنت تماما.

" ليس هذا بشرط."

رفعت نظرها من يدها التي تستكين بين راحيته ونظرت في عينيه وقالت:

" أنا متأكدة أنه لم يحبني. كما أنا مدركة تماما إنك لا تحبني..."

ابتسم وقال:

" إنك تشبهين زوجتي بشكل لا يصدق."

" أما هو فقد قال لي أني أشبه الأرواح الهائمة في هاديس. ولما قلت له أنك تراني ميتة بهذه الطريقة عبس ثم قال أني أشبه روحه."

" كنت سأقول أنك تشبهين زوجتي في روحها أيضا."

" يا لحواء المتغيرة. حواء منذ الأزل. ألا يوجد حل لحواء هذه؟ حتى صافي قال لي أني أشبه فتاة قابلها في رحلة ما، الفتاة كان اسمها شهد. يا الله . ما أسمعه ممتعا جدا."

قال سليمان مندهشا:

" هل رأيت صافي؟"

سحبت يدها من يده، وقالت:

" نعم. قبل أن أجيء إليك."

" لم يقل لي أنه سوف يقابلك."

" وهل يجب عليه أن يقول لك كل شيء؟ ولي أمره؟ أو شيء من هذا القبيل؟ "

جرحه هذا الكلام، أو جرحته التلقائية أكثر من الكلام نفسه، شعر كأنها قد استُفِزت لشيء يجهله. لا ليس ولي أمر أحد.

رد عليها بهدوء:

" لا."

كان مازال يشعر ببرودة يدها بين كفيه رغم سحبها لها. نظر إلى يدها المستكينة الخاملة الموضوعة على حجرها. فكر أن هذه اليد لا تدل أبدا على صاحبتها المتحفزة. أي انفصال تام بينهما!

لاحظت حملقته في يديها. ففردتهما أمامها.

" كان عبد الرحمن يحب يداي كثيرا. وكم قال لي أنهما عمل فني متكامل. "

" أتعرفين أن بعض الرسامين كانوا يتقاضون أجرهم علي حسب عدد الأيادي التي توجد في اللوحة، تحت شعار أن الأيادي صعبة وتستهلك طاقة كبيرة وتحتاج حرفية عالية."

" ترى من كان سيرسم يدي؟"

حاول سليمان تخفيف التوتر الذي بدأ يكبس عليهما فقال ضاحكا:

" مؤكد فنان مجنون. "

لم تعلق على دعابته وأمسكت بالدوسيه وقالت:

" هذه آخر أوراق أعطاها لي عبد الرحمن قبل اختفائه الغادر. كنت أنوي أن أحضر لك كل ما كتب لأنك لم تقرأه ثم تراجعت. هي على كل حال منشورة ومعروفة تجدها في أي مكتبة. لكن أعتقد أن هذه الأوراق هي ما لم يقله. فهي مختلفة عن بقية كتاباته في الفكرة وحتى في الأسلوب."

أمسك سليمان بالدوسيه وفتحه وتصفح الأوراق سريعا، لكنه لم يركز غير في الخط وشكله. أغلق الدوسيه.

" شكرا."

" ربما كان فيها حل لغز اختفائه أو انتحاره كما يزعمون."

" سأقرؤها فيما بعد، ثم سأردها إليك."

همت سعاد أن تعترض لتجعله يقرأها أمامها، ثم غيرت رأيها سريعا:

"لا. احتفظ بها. فلن تزدني سوى الألم. كنت أظن أني أريد أن أحتفظ بها إلى الأبد ولكن في هذه اللحظة فقط قررت أن أتركها معك. ولتفعل بها ما تشاء. لا يوجد أي نسخة أخرى منها."

ثم انتفضت واقفة وقالت:

" يجب أن أتركك الآن."

وقف سليمان. فأكملت وهي تمد له يدها مصافحة:

" كان تعارفنا سريعا ولكنه كاف. ربما يرى أحدنا الآخر فيما بعد."

تصافحا وكانت يده هي الباردة هذه المرة. لبثت يدها في يده لبرهة أطول قليلا من وقت المصافحة العادي. ثم قال وقد شعر أن برودة يده تزداد:

" لندع هذا للظروف."

الحد

تصفح سليمان مرة أخرى بتمهل مجموعة الأوراق القليلة التي أعطتها له سعاد. خط عبد الرحمن متناسق لكنه أيضا يتصف بحده في شكل الحروف وارتباطها ببعض فتشف عن توتر وعنف مستترين خلف هذا الاتساق الشكلي.

في منتصف الورقة الأولي، وجد عبارة واحدة :

(إن الوعي الحقيقي هو الذي يتمثل في الحد بين الجبر والاختيار.)

وضع سليمان الأوراق جانبا، وأراح ظهره على مسند المقعد دون أن يكمل القراءة. ترك ساعده يسقط بجواره حتى لمست يده الأرض لمسة خفيفة. أغمض عينيه ببطء فلمعت فضاءات باهرة الضوء، تتداخل بسرعات هائلة، تتصادم وتتداخل ويعاد تكوينها من جديد مع حركة مقلة العين المغلقة. تسارعت دقات قلبه مع حركة تلك المتداخلات ثم بدأت في التباطؤ والهدوء حتى اتسم الفراغ بلون برتقالي خف هو الآخر إلى البياض ومنه إلى خواء الاسوداد التام. هذا السواد يذكره بليل غرفة الفندق وفريدة راقدة في سحرها الفتان.

فريدة وسعاد حلم متوازي البريق والوجع. أي تشابه يفرض نفسه عليه . يا للسخرية ..حد بين الجبر والاختيار..

كأنه تناقش مع عبد الرحمن من قبل. يسمع صوته وهو يجادله في الاختيار الممنوح لنا من هذا الكم اللانهائي من الاحتمالات.

- عن أي جبر تتكلم؟
- على الأقل الميلاد والموت.
- يا سيدي.. تغييبك هو الذي يفرض عليك هذا.
- بمعنى؟
- حتى ميلادك وموتك احتمالات موجودة ومطروحة منذ الأزل. فأنت مثلا لم تخلق وأيضا خلقت. مت ولم تمت. كله موجود في هذا الكون.
- و..؟
- وعيك الذي يختار ويعي لحظة معينة هو الذي يشكل تاريخك.
- إذن من الممكن أن نكون نحن الاثنين معا الآن وأيضا من الممكن ألا نكون معا على الإطلاق.

- بل من الممكن أيضا أن يكون أي منا لم يولد ولن يولد أبدا. أو وجدنا ولكن لن نتقابل في إي لحظة من تاريخنا. فقط لحظات الوعي هي التي تحدد خط الحياة التي يظن عقلك أنه هو الاحتمال الأوحد.
- ويتعامل على هذا الأساس.
- بالضبط. إرادة الوعي هي التي تحدد. قد يستحيل لقاؤنا..
- لكنه موجود موجود.
- هو موجود موجود. أليس كذلك يا سليمان؟

تنهد سليمان بأسى وحرقة.

الخفة

منذ أن ترك سعاد لم يرها ولم يتصلا بعدها. كما أنه لم يعد يرى صافي. ضاع أيضا في زحمة الحياة. كلما ذهب إلى غرفته في الفندق لا يجده. وعندما يسأل عنه في الاستقبال يقولون له أنه غير موجود، نزل منذ فترة، لا نعرف مكانه. لم يترك رسالة. تعود على الردود فلم يعد يسأل. أصبح يمضي وقته متسكعا في الشوارع أو متنزها في الحدائق، منكبا على القراءة في المكتبات العامة، مستمتعا بعروض الأوبرا المحلية والعالمية. لم يكن يحمل للمصاريف هما، كان ما معه من نقود يكفيه فترة أطول مما توقع. يخطر على باله أطياف الجميع لكنه لا يبذل أي جهد لرؤيتهم، حتى صافي ذلك الذي يسكن معه في نفس الفندق.

تذكره ووجهه الذي كان ملتاعا من الوحدة ..الوحدة. تراه تخلص من هذا الخوف، أم أنه وجد من يلهيه عن الوحدة. واجه هو نفسه أتشعر بالوحدة يا سليمان. لا يبدو ذلك. فأنا لا أسعى إلى إي أحد من الذين أعرفهم. لكن أيعني أنك لا تشعر بها؟ فليكن. واجهته معضلة شبه دينية: هل يستطيع المؤمن أن يكون وحيدا في عالم خلقه إله رحيم. إله رحيم. ثم ألا يعتبر هذا إثما لو كنت مؤمنا به فعلا. رحمة تؤدي إلى الإثم. مضحك..

كان جسده المرخي الغائب يـهتز برفق. ارتعشت أصابع يده الملقاة بجانبه. رمش قليلا وواجه نور موحش وفتح عينيه. تمتم أنا أهلوس فقد تراءى أمامه سرب أفراس بيضاء تجري وأعرافها ناصعة البياض طائرة متراقصة تعكس نورا وهاجا لكنه هادئ ومريح. ثم تحولت هذه الأفراس الهاربة إلى ضباب سرعان ما تبدد.

" سليمان."

أتاه صوت صافي منتزعا إياه من نعاسه. كان يجلس تحت شجرة بونسيانا عملاقة في حديقة الفندق، وقد لطشه نسيم عليل وشمس مخادعة فأسلماه لنعاس حلمي.

كان وجه صافي جميلا سعيدا مستبشرا. بدأت الرؤية تتضح أكثر. صافي يقف أمامه وبجواره تقف سعاد بقدها الدقيق الجميل.

أفاق سليمان ولمح يديهما المتشابكتين. يد صافي الشاهقة البيضاء ويد سعاد بلونها البرونزي الناعم. التوى جانب فمه بابتسامة، واعتدل في مقعده. كانت أعراف الأفراس البيضاء تختفي في السحاب وراءها.

انحنى صافي مقتربا منه أكثر كأنه لا يثق في استيقاظه التام. اتسعت ابتسامته أكثر وقال:

"أحب سعاد."

كلمتان بسيطتان. أحب سعاد.

خرجت كلمتان أيضا من فم سليمان منفصلين كأنهما غير مرتبطين:

" عبد..الرحمن."

كررت سعاد في دورها:

" سليمان. أحب صافيا."

كأنهما يتكلمان مع جد عجوز في ملجأ للعجزة، وهم غير متأكدين أنه يعي ما يقولانه إليه، كأن عليهم أن يوصلوا إليه هذا الخبر كواجب عائلي وفي نفس الوقت لأنهما يعرفان أنه إن وعى سيفرح لهما.

نعم هناك شيء يفرح دون شك. لا ينكر أنه شعر بالغبطة لمنظرهما. لكنه يشعر بالهزيمة كاملة. شعر أنه هرم جدا. وإن عشرات السنين تفصل بينه وبين هذين الكائنين الذين في وجهه الآن. يتعجب: ما كل هذا الثقل المفترض أنه غير موجود! أين الخفة؟ أين أنت أيتها الخفة اللطيفة؟ يفكر في الميزان والراحة.

اقتربا أكثر وقبله كل منهما قبلة رقيقة سريعة ثم انصرفا.

غمغم سائلا نفسه:

" هكذا ..ببساطة؟"

نعم هكذا ببساطة.

يفكر أنه الآن بانت سعاد فعلا...بانت بانت بانت بانت بانت بانت.

يضع يده على أوراق عبد الرحمن. يقرأ الجملة الافتتاحية مرة أخرى. ويأتيه صوت عبد الرحمن ضاحكا هذه المرة ضحكة صافية عالية مرحة..(قد قربنا على الانتهاء. فبشرى)

يقلب الصفحة ويقرأ..

إليوسيس

الإسكندرية

العام الثالث عشر من حكم الإمبراطور ثيودوسيوس بنيديكتوس الأول الملقب بالأكبر

كنت أعيش مع أبوللو هذا الإله الرائع. يقع بيتي في منتصف شارع دينوقراط في الحي الملكي، قريبا من رأس لوخياس. بيتي معقول الاتساع وهذا شيء يسعدني بالذات حتى يليق بوجود إله جميل مثل أبوللو الذي أستضيفه. في ليالي الصيف الرائقة للإسكندرية المدينة التى لا مثيل لها يمسك بقيثارته ليسمعني ألحانه الجديدة ويتبسط معي ويأخذ رأيي فيها. نجلس على سطح المنزل تحت قبة النجوم الرائقة نشاهد الميناء الجميل والقصر الملكي والمكتبة. يحكي لي عن رحلاته في العالم، وأيام جبل الأوليمب. يسلي ليالي بأشكال التنكر المختلفة التي يتخذها للمرح وعندما يتصل بالبشر. أسأله بأدب وخجل في بعض الأحيان، لماذا خصني أنا بهذا الشرف، ولماذا يتخذ بيتي المتواضع مأوى له في المدينة. يصمت قليلا ويقول ستعرف.

إلهي هذا الشاب البهي، يهرب مني ليجالس الجميلات في حدائق السوق بين حلبة المصارعة والجمنازيوم ومعبد " بان "، متنكرا يقرأ لهن الطالع بين اندهاشهن ودلالهن. يوزع عليهن الهدايا والضحكات، يهمس في آذانهن بأشعاره الجميلة ويعزف لهن الموسيقى بروعة الإله الفنان.

لكن رغم طابعه المرح وأيامه السعيدة، في أحيان كثيرة أسمعه في سكون الليل يبكي، فأمشي على أطراف أصابعي حتى أصل إلى ركنه في منزلي فأراه وقد تخلى عن تنكره كعادته عندما يكون في بيتي وقد جلس مسندا رأسه بين يده يبكي. ولا أستطيع عمل شيء له ولا مساعدته. فأنا أخجل أنا أراه رقيقا هشا هكذا. آه أيها الاله الجميل!

كان أبي يحبني كثيرا، كان طبيبا مشهورا ومشهودا له بالرفعة في أخلاقه والمهارة في عمله. وكم كنت في صغري، أجلس على حجره ليقص لي حكاياته المسلية. حكى لي أن أبوللو كان في البدء حور الذي تغير اسمه إلى حورس ثم تحول إلى الطفل حوربقراط، وأخيرا تجلي كأبوللو. ومرت الأيام ولم يعد أبي موجودا ولم يعد أحد يهتم أيضا بأبوللو إلهي الجميل. كيف تغيرت المدينة العظيمة هكذا، كيف حل عليها هذا السواد؟ تغيرت المدينة بعد واقعة الهجوم المرعب الذي تم على السيرابيوم وتدميره.

يقولون أنهم يؤمنون بإله جديد يبشر بالرحمة والمحبة، إذن لماذا يدمرون ويهدمون كل الجمال الموجود في المدينة؟ إلههم وإلا فلا؟ أي إله رحيم هذا! هدموا فيما هدموا تماثيل أبوللو. هربت كل العائلات التي تؤمن به إلى الصعيد. لم يعد أحد يجرؤ على البوح باسمه أو باسم أي إله آخر. عجبا؟ هل يغيب مجدك الأزلي يا مدينتي الحزينة، يا إسكندريتي الحبيبة ؟

هل تنتحر الآلهة القديمة؟ التي أهملت عن عمد أو ربما من خوف؟

هل يرحل حبيبي أبوللو أيضا؟ أخاف أسأله وأخجل. قد يظن أني أخاف لوجوده في منزلي فهم يتشممون الأخبار ويهجمون مثل غربان البين بوجوههم المتجهمة وثيابهم السوداء. لكنهم لا يهمونني على الإطلاق. أنا أخاف أن أجرح رقته وشعوره.

لكنه للحق في بعض أوقات الصفاء تعلو أنغام قيثارته بألحان سماوية جميلة ويصدح بصوته السكري الرائق كماء العيون السلسبيل تماما مثل الأيام الخوالي السعيدة. يطمئنني بأنه في قلوب الناس مهما فعلوا، حتى في معظم قلوب هؤلاء القساة الجدد، وحتى لو ماتت كل الآلهة. يؤلمني حديثه لكني أصدقه رغم بذور الشك داخلي، وأصدق على كلامه كي لا يغتم ويتألم. ثم أشجعه كي يخرج للتنزه مرة أخرى فينشط ويأخذه الحماس ويتنكر كعادته ويقصد الأسواق، يتنزه في الحي الملكي وربما يعبر حي دلتا الذي يعيش فيه اليهود، أو يسير بلا هدى من الجمنازيوم وحلبة المصارعة، أو من المسرح الكبير إلى السوما ومعبد بان، لكنه دون شك يتجنب المرور بجانب السرابيوم الذي تحول الآن إلى كنيسة جبرائيل. يتأمل أسوار المدينة العالية ويمشي بحذائها حتى يصل إلى بوابة الشمس فيخرج منها ليصل إلى إليوسيس قرب معبد بومبي القديم ويجلس أمام شاطئ البحر شاخصا إليه يحلم بما سوف يأتي.

وعندما يطول غيابه أخرج لأبحث عنه وأخمن إين يجلس، فأخرج أنا أيضا من بوابة الشمس وأتجه للشرق حيث إليوسيس فأجده في مكانه الأثير على الشاطئ، جالسا بجسده المتألق أمام البحر، وما أن يشعر بوجودي حتى يلتف وراءه ويمد ذراعه ليمسك بيدي ويجلسني بجانبه نتأمل البحر الجاثي أمامنا بروعة زرقته ويقول لي وابتسامة لطيفة تشرق في محياه الوضيء:

" هنا. في نفس المكان، بعد سنين وسنين تطول. ستجلس أمام ذات البحر وتكتب عني وعن أحزاني. وسيضهدونك لأنهم لن يعرفوا الحب وسيتساءلون عن أي إله تتحدث؟ لكنك أنت وحدك من سيسمع صوت الإله الحقيقي، وستراه وهو يمنحك الحب ويغمرك بالرحمة... فاحرص ألا تُخْدَع.. ولا تيأس...فأنا أعرفك وأخبرك جيدا لأنك تحتفظ بالنور في قلبك وبالنار في روحك.....

All' alba vincero'

" نعم.

هُجِرْتُ كما هَجَرتُ.

لكن لا أحد ينام يا أميرتي القاسية.

وأحاجيكِ لم تعد تهم...

وكل ما بقي هو أحجيتي أنا.

تفكرين كثيرا. تعذبين كثيرا.

وتظل أحجيتي أنا.

وسأرجع وببزوغ الفجر سأنتصر. ببزوغ الفجر سأنتصر."

قام سليمان مترنحا من النشوة، يغني.

وكان يفكر :

" إلى فريدة أمري وببزوغ الفجر سأنتصر."

تمت

AMRUAFIA@GMAIL.COM